الدعوة الإسلامية في موطنها الأول

درج الباحثون في تاريخ الدعوة الإسلامية في عصر الرسالة على دراستها في إطار عهدين متكاملين ومتمايزين. عرف العهد الأول بالعهد المكي، وهو يبدأ بنزول الوحي على الرسول ﷺ في سنة 609م، وينتهي بهجرته إلى المدينة في سنة 622م. ويمتاز هذا العهد بصورة أساسية بعمل الرسول ﷺ الدائب من أجل الدعوة بين الناس بصورة سلمية متحمّلاً في سبيل ذلك ضروب المضايقة والأذى والاضطهاد. أما العهد الثاني، فهو العهد المدني، ويبدأ من تاريخ وصول الرسول ﷺ إلى المدينة في سنة 622م، وقد تميز هذا العهد بنشأة المجتمع الإسلامي المتميز في المدينة، وقيام دولة المدينة تحت قيادة الرسول ﷺ.

ويمكن للباحثين أن يقسموا كل عهد من هذه العهود إلى فترات متميزة استنادًا إلى الظروف التي مرت بها الدعوة الإسلامية، والأسلوب الذي اتخذته في مواجهتها. لذا فقد قام المؤرخون بتقسيم العهد المكي إلى مرحلتين رئيسيتين هما مرحلة سرية الدعوة التي بدأت بنزول الوحي على الرسول ﷺ وانتهت بعد ذلك بثلاث سنوات أي في سنة 612م. أما المرحلة الثانية، وهي مرحلة علنية الدعوة، فتبدأ من سنة 612م وتستمر حتى هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

ويلاحظ أن نزول الوحي على الرسول ﷺ، أو تشريع الأحكام والتعاليم الإسلامية، قد واكب عملية نمو وتطور الجماعة الإسلامية الناشئة عبر المراحل الآنفة الذكر من حيث القلة والكثرة، القوة والضعف. كما أخذ بنظر الاعتبار أوضاع المجتمع الذي تعيش فيه، وموقف القوى المعادية من الدعوة، وأسلوب مواجهتها.

وقد كان من الطبيعي أن تعمد آيات القرآن الكريم الأولى التي نزلت على الرسول ﷺ في مرحلة سرية الدعوة، إلى توضيح معالم العقيدة الجديدة بلغة مفهومة، تراعي مدارك الناس العامة، واحتياجاتهم العميقة، من أجل اجتذابهم إلى صفها بالكلمة والموعظة الحسنة.

أولاً: مبادئ وتعاليم الإسلام الأولى:

كان نزول الوحي على الرسول ﷺ في غار حراء بمثابة إعلان أولي لثلاثة أركان من أركان العقيدة الإسلامية، وهي الإيمان بالله وقدرته، والإيمان بأن العناية الإلهية قد اصطفت محمد بن عبد الله ﷺ من بين البشر ليكون رسول الله إلى الناس، والإقرار بدور

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الملائكة (جبريل) في إيصال الرسالة الإلهية إلى النبي محمد ﷺ عبر عملية الوحي.

وقد تولت الآيات القرآنية التي نزلت على الرسول ﷺ بعد ذلك بيان تفاصيل العقيدة الإسلامية وما يتصل بها من مبادئ وتعاليم متنوعة.

ويتبين من دراسة السور المكية التي نزلت في مرحلة سرية الدعوة أنها قد ركّزت اهتمامها على توضيح عقيدة المسلمين في الله تعالى وما يجب على الناس القيام به تجاهه من شكر وعبادة كما تطرقت إلى توضيح مسألة البعث بعد الموت وما يتصل بها من ثواب وعقاب أو جنة ونار[1].

ويلاحظ أن الخطاب القرآني قد تعامل مع مسألة الإيمان بوجود الله تعالى وقدرته بصفتها من المسلمات التي لا تحتاج إلى برهان، وذلك لأنه حتى المشركين من العرب كانوا يقرون بذلك: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ...﴾ [2].

ومن ثم قد انصب اهتمام القرآن الكريم في هذه المرحلة على بيان فضل الله على الإنسان، الذي ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ﴾، والذي ﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾، والذي خلق السموات والأرض وما فيها من خيرات ومخلوقات مسخرة لخدمة بني الإنسان. لذا فقد قرر القرآن الكريم أن الله هو رب العالمين، لأنه خالقهم ومالكهم ومربيهم، وقد ذهب بعض العلماء إلى أنّ ((الرب)) هو اسم الله العظيم لكثرة الداعين به، "ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال".[3]

وإن مما تجدر ملاحظته في هذا المجال، أن السور القرآنية الأولى قد استخدمت اسم الرب كثيرًا، ولم يرد فيها اسم الله تعالى إلا نادراً.

ففي سورة العلق يرد فيها ذكر (ربك) في مخاطبة الرسول ﷺ ثلاث مرات، وفي سورة القلم ترد نفس الكلمة مرتين في مطلع آياتها الأولى، وكذلك ترد مرتين في مطلع سورة المزمل، وترد في بداية سورة المدثر مرتين، وهكذا..[4].

---

(1) سورة العلق، الآية 1- 5، سورة القلم، الآية 1- 7، سورة المزمل، الآية 1- 9، سورة المدثر، الآية 1- 10، سورة التكوير، الآية 1- 14، سورة الأعلى، الآية 1- 19.

(2) سورة العنكبوت، الآية 61.

(3) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، القاهرة 1952، ج 1، ص 136 – 137.

(4) سورة العلق، الآية 1- 5، سورة القلم، الآية 1-7، سورة المزمل، الآية 1- 9، سورة المدثر، الآية 1- 7.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثانيًا: سرية الدعوة والمؤمنون الأوائل:

تؤكد المصادر التاريخية أن الرسول ﷺ قد سلك طريق التدرج في نشر الدعوة بين الناس، وأحاط نشاطه في هذا المجال بنوع من السرية التي تضمن له تبليغ الدعوة إلى الأشخاص الذين يتوسم فيهم الاستعداد للتجاوب مع المبادئ والمثل التي جاء بها الوحي.

ويلاحظ أن هذه السرية في نشر الدعوة لم تكن سرية مطلقة، إذ أن مشركي مكة كانوا على معرفة بتحركات الرسول ﷺ وأتباعه بصورة عامة[1]، وإنما هي نوع من التأني والحذر وعدم اللجوء إلى مخاطبة الناس بصورة علنية وعامة بالدعوة إلى اعتناق مبادئ الدين الجديد. فقد ذكر ابن سعد في رواية له عن الزهري "أن رسول الله ﷺ دعا إلى الإسلام "سراً وجهراً"، فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به، وكفار قريش غير منكرين لما يقول، فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أن غلام بني عبد المطلب ليكلم من السماء"[2].

وقد استمر الرسول ﷺ على اتباع هذا الأسلوب في نشر الدعوة مدة ثلاث سنوات، فكان كما يقول ابن إسحاق "ربما أخفى الشيء واستتر به إلى أن أمر بإظهاره ثلاث سنين من مبعثه".[3]، ويقول ابن سعد، "فكان رسول الله ﷺ يدنو من أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفياً إلى أن أمر بظهور الدعاء"[4].

وتجمع المصادر على أن أول من آمن بالرسول ﷺ زوجته خديجة، ثم تختلف في ترتيب الثلاثة الذين آمنوا به بعد ذلك، وهم كل من علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة وأبي بكر الصديق. ولا يبدو لنا أن لهذا الترتيب أهمية كبيرة من الناحية التاريخية، لأنهم جميعًا قد أسلموا في أوقات متقاربة، وإن كنا نرجح أن علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة قد أسلما قبل أبي بكر الصديق لأنهما كانا من بين عائلة الرسول ﷺ، فقد كان علي بن أبي طالب ابن عم الرسول ﷺ وربيبه، ولم يكن قد تجاوز العشر سنوات حين إسلامه. أما زيد بن حارثة فقد كان مولى رسول الله ﷺ ومتبناه أي

---

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص 118 – 119.

(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج 1، ص 199.

(3) ابن إسحاق: المغازي، ص 126.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 199، راجع أيضًا، الطبري: تاريخ ج 2، ص 318.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابنه بالتبني، فكان يدعى زيد بن محمد قبل أن يلغي الإسلام عادة التبني[1].

وقد أورد ابن إسحاق حديثًا عن الرسول ﷺ حول إسلام أبي بكر الصديق يقول: "ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر، الا أبا بكر: ما عتم حين ذكرته له وما تردد عنه"[2]. وقد عزا ابن كثير سبب عدم تردد أبي بكر الصديق في قبول الدعوة إلى أنه "كان صاحب رسول الله ﷺ قبل البعثة، وكان يعلم من صدقه وأمانته وحسن سجيته وكرم أخلاقه ما يمنعه من الكذب على الخلق. فكيف يكذب على الله؟" [3].

وتؤكد العديد من المصادر أنه كان لأبي بكر الصديق شأن كبير في نشر الدعوة الإسلامية وذلك لأنه كان: "رجلاً مألفًا لقومه، محبباً، سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بما كان فيها من خير أو شر. وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته"[4]. كما ذكر ابن سعد أن أبا بكر الصديق حين دخل في الإسلام كان "عنده أربعون ألف درهم فكان يعتق منها ويقوى المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم"[5].

لقد أخذ أبو بكر الصديق بعد اعتناقه الإسلام "يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه"[6]، فأسلم على يديه كما يذكر ابن إسحاق، الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف[7].

وكان ممن دخل في الإسلام في هذه المرحلة المبكرة أربعة أشخاص دخلوا في الإسلام معًا. قال ابن إسحاق: "انطلق أبو عبيدة بن الحارث وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعبد الله بن الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون حتى أتوا رسول الله ﷺ فعرض

---

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص 120 – 121، ابن سعد: الطبقات، ج 3، ص 21 – 22، الطبري: تاريخ، ج 2، ص 209 – 318.

(2) ابن إسحاق: المغازي، ص 120.

(3) ابن كثير: السيرة النبوية، ج 1، ص 213.

(4) ابن إسحاق: المغازي، ص 121، الطبري: تاريخ، ج 2، ص 317.

(5) ابن سعد: الطبقات، ج 3، ص 172.

(6) ابن إسحاق: المغازي، ص 121.

(7) المصدر نفسه، ص 121.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليهم الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، فأسلموا، وشهدوا أنه على هدى ونور"[1].

ويلاحظ أن المصادر لا تتفق فيما بينها في تفاصيل إسلام المؤمنين الأوائل من حيث أسبقية دخلوهم في الإسلام وكيفيته. لذا فإن ابن سعد، على سبيل المثال يقدم لنا معلومات عن إسلام المجموعة الآنفة الذكر تختلف في بعض جوانبها عن تلك التي ذكرها ابن إسحاق. يقول ابن سعد: "انطلق عثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله ﷺ، فعرض عليهم الإسلام وأنبأهم بشرائعه فأسلموا جميعًا في ساعة واحدة، وذلك قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وقبل أن يدعو فيها"[2].

يتبين مما تقدم، أن عدد أفراد المجموعة يبلغ عند ابن سعد خمسة أفراد بينما هو عند ابن إسحاق أربعة، كما أنها تضم عند ابن سعد عبد الرحمن بن عوف وأبا عبيدة بن الجراح، في حين لا يذكرهما ابن إسحاق في قائمته، ويضع عوضاً عنهما عبد الله بن الأرقم ويذكر أن عبد الرحمن بن عوف قد أسلم بوساطة أبي بكر الصديق.

ومهما يكن الأمر في مثل هذه الخلافات، فإن الإسلام قد أخذ ينتشر بين الناس على يد هذا الرعيل الأول من المؤمنين حتى وصل عدد المسلمين في نهاية مرحلة سرية الدعوة إلى اثنين وخمسين مسلماً ومسلمة طبقًا لقائمة الأسماء المفصلة التي قدمها لنا ابن إسحاق في كتابه المغازي[3].

إن دراسة أسماء المؤمنين الأوائل توصلنا إلى أنهم كانوا يتوزعون على جميع العشائر المكية، وأنهم كانوا ينتمون إلى فئة الشباب بصورة رئيسية، إذ لم تتجاوز أعمار معظمهم حين إسلامهم الثلاثين سنة. كما لم يقتصر انتشار الإسلام على فئة دون أخرى من فئات المجتمع، فقد انتشر بين الرجال والنساء، وبين الأحرار والحلفاء والرقيق. وإن كان أغلبية المؤمنين الأوائل من صميم أبناء العشائر المكية.

ولم يكن أغلبية المؤمنين من الفقراء والمعدمين، بل من فئة التجار المتوسطين أو من أبنائهم، بل إن بعضهم كانوا من أبناء كبار تجار مكة مثل خالد بن سعيد بن العاص[4]. أما ما ذكره الزهري من أن المؤمنين الأوائل كانوا "من أحداث الرجال،

---

(1) المصدر نفسه، ص 124.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج 3، ص 393.

(3) ابن إسحاق: المغازي، ص 121، 124 – 125.

(4) المصدر نفسه، ص 125.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وضعفاء الناس"[1]، فيبدو أنه قصد بتعبير أحداث الرجال، تلك الفئة من الشباب التي تحدثنا عنها، أما ضعفاء الناس فيبدو أنه أراد بهم تلك الفئة من الحلفاء والرقيق الذين لا ينتمون بصورة أصيلة إلى العشائر القرشية، لأنهم لا عصبية عشائرية لهم يحتمون بها[2].

ويظهر من الروايات التي وصلتنا عن المسلمين في هذه المرحلة أنهم كانوا يواصلون نشاطهم في نشر الدعوة عن طريق الاتصالات الشخصية، كما كانوا يلتقون بالرسول ﷺ في بعض الحالات خارج مكة بعيدًا عن ملاحظة المشركين.

فقد روى ابن إسحاق عن عبد الله بن بريدة، إن ابن عم لأبي ذر وأبا ذر وبريدة انطلقوا "يطلبون رسول الله ﷺ وهو بالجبل مكتتم بطائفة من مكة"[3].

ولم يكن المسلمون في هذه المرحلة يؤدون صلاتهم بصورة علنية، بل إنهم كانوا إذا أرادوا الصلاة "ذهبوا إلى الشعاب، واستخفوا بصلاتهم عن قومهم"[4]. ويبدو أن المشركين قد ضاقوا ذرعًا بأحوال المسلمين ونشاطاتهم، ومن ثم فقد أخذوا يضايقونهم ويتعرضون لهم، وربما كان ذلك في نهاية مرحلة سرية الدعوة، فقد ذكر ابن إسحاق أنه بينما كان سعد بن أبي وقاص "في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين، وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم واقتتلوا، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً من المشركين بلحي بعير، فشجه، فكان أول دم اهريق في الإسلام"[5]. وإن مما يجدر ذكره في هذا المجال أن سعد بن أبي وقاص كان من أوائل المسلمين، وأنه قد دخل الإسلام وعمره سبع عشرة سنة[6].

ويبدو أن الرسول ﷺ قد اتخذ في هذه الرحلة من دار أحد المؤمنين الأوائل، وهو الأرقم بن أبي الأرقم من بني مخزوم، مقراً للدعوة إلى الإسلام. وقد كانت هذه الدار عند الصفا قرب المسجد الحرام، فكان النبي ﷺ يتوارى فيها عن المشركين "ويجتمع

---

(1) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 199.

(2) من أجل مزيد من التفصيل، يراجع وات: محمد في مكة، ص 144 – 160، الحديثي، د. نزار: مجتمع الصحابة، مجلة المؤرخ العربي، مقبول للنشر، ص 13 – 18، وكذلك القائمة رقم1 (المهاجرين من الصحابة).

(3) ابن إسحاق: المغازي، ص 122.

(4) المصدر نفسه، ص 128.

(5) المصدر نفسه، ص 128 – 129.

(6) ابن سعد: الطبقات، ج 3، ص 139.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هو وأصحابه فيه عند الأرقم بن أبي الأرقم، ويقرئهم القرآن ويعلمهم فيه"[1].

ولا تزودنا المصادر بأسباب اختيار الرسول ﷺ لدار الأرقم بن أبي الأرقم ليكون مقراً لنشاطه في مكة، وربما كان موقع الدار القريب من المسجد الحرام، وقوة عشيرته التي تضمن له الحماية، بالإضافة إلى كونه شاباً دون العشرين ومن المحتمل أنه كان رئيس عائلته[2]، كلها كانت من العوامل والأسباب التي جعلت الرسول ﷺ يتخذ داره مقراً لنشاطه في مرحلة سرية الدعوة.

ثالثًا: دوافع المسلمين الأوائل في اعتناق الإسلام:

لقد تساءل العديد من الباحثين عن طبيعة الدوافع التي دفعت المسلمين الأوائل إلى التخلي عن ديانة آبائهم وأجدادهم واعتناق الإسلام[3]. والحقيقة أننا لا نعثر في القرآن الكريم والمصادر التاريخية على جواب مباشر على هذه المسألة. لذا فإن ضرورات البحث تدعو إلى محاولة العثور على الجواب من خلال دراسة الظروف الدينية والاقتصادية والسياسية التي نشأت في إطارها الدعوة الإسلامية، وهو الأمر الذي تولى الفصل الأول من الكتاب معالجته، ودراسة طبيعة التعاليم التي جاء بها الإسلام في بداية نزول الوحي على الرسول ﷺ، وهو ما عرضنا له بايجاز في المبحث السابق.

إن مجمل التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي أحاطت بالمجتمع العربي والمكي على وجه الخصوص قد أدت إلى ظهور قلق روحي واجتماعي عميق.. وقد عبرت عن هذا القلق تلك التوجهات التوحيدية التي ظهرت عند أؤلئك الأحناف الذين رفضوا عبادة الأصنام، ولم تطمئن قلوبهم إلى الديانة اليهودية أو النصرانية، وراحوا يبحثون عن الدين الحق، دين أبيهم إبراهيم... ويبدو أن الرسول ﷺ كما أوضحنا سابقًا، لم يكن بعيدًا عن هؤلاء الباحثين عن الدين الحق، إذا لم يكن أبرزهم، لذا فقد منّ الله عليه بالهداية إلى الإسلام: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾[4].

إن التأمل في الآيات القرآنية الآنفة الذكر يوضح مدى التداخل بين العوامل

---

(1) الأزرقي: أخبار مكة، ج 2، ص 260.

(2) توفي الأرقم سنة 55هـ، وهو ابن بضع وثمانين سنة، لذا فإن عمره حين إسلامه في أول البعثة كان يتراوح بين الـ17 – 20سنة. ابن سعد: الطبقات، ج 3، ص 244، وات: محمد في مكة، ص 156.

(3) وات: محمد في مكة، ص 161 – 165، العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص 297 – 298.

(4) سورة الضحى، الآية 6 – 8.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاجتماعية والدينية والاقتصادية في الخطاب القرآني، حيث لم يفصل الله تعالى فيه بين استنقاذ الرسول ﷺ من حالة اليتم، والضلال الروحي، والفقر، بل عالجها جميعًا وكأنها حالات متداخلة يؤثر بعضها في بعض. كما لم يفصل بين كل ذلك وبين دعوته للبر الاجتماعي[1].

إن دراسة الآيات القرآنية المبكرة لتؤكد أن الإسلام لم يفصل في تعاليمه بين الجوانب الروحية البحتة وبين الجوانب الاجتماعية والاقتصادية. لذا فإن آيات القرآن الكريم تربط في وقت واحد بين الحديث عن عناية الله تعالى ورعايته للإنسان وبين تكليفه له بأن يرعى أخاه الإنسان ويساعده على تجاوز المصاعب التي تواجهه في الحياة على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي[2].

إن وجود منظور شمولي للحياة في الإسلام يغطي الجوانب الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لا يعني أن هذا المنظور قد ظهر مرة واحدة ومنذ البداية، كما لا يعني أن جميع المؤمنين الأوائل قد آمنوا نتيجة استيعابهم لهذا المنظور الشمولي، بل المقصود أن ملامح هذا المنظور كانت ظاهرة منذ البداية، كما أن المؤمنين الأوائل قد استجابوا للدعوة لأن كل واحد منهم وجد في الإسلام أو في جوانب معينة من تعاليمه ما يشبع حاجته وتطلعاته في الحياة سواء أكان ذلك في الجانب الروحي أو في الجانب الاقتصادي والاجتماعي بالإضافة إلى الجانب الروحي.

ومن ثم، فإن بالإمكان القول أن إسلام أشخاص من أمثال خديجة وزيد بن حارثة، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن مظعون وخالد بن سعيد بن العاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، قد جاء لاعتبارات دينية بالدرجة الأولى لأنهم كانوا من الاحناف أو ممن له صلة وثيقة بهم. كما يمكن تلمس الدوافع الاجتماعية والاقتصادية إلى جانب الدوافع الروحية في إسلام بعض المستضعفين من الموالي والرقيق وغيرهم.

وإن مما يؤكد الاستنتاجات الآنفة الذكر أن الذين تصدوا لمقاومة الدعوة، إنما تصدوا لها ليس لاعتبارات دينية بحتة، بل لأسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية أيضًا، وهو الأمر الذي سنوضحه في المبحث اللاحق.

---

(1) سورة الضحى، الآية 9 – 11.

(2) راجع على سبيل المثال: سورة الليل الآية 5 – 11، سورة الفجر، الآية 15 – 11، سورة البلد، الآية 7 – 20.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاشرا: نزول الوحي على محمد ﷺ:

تحمل كلمة وحي في اللغة العربية عدة معان، ومن أبرز هذه المعاني: (الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك، والصوت يكون في الناس وغيرهم) [3]. أما عند الفقهاء فتعني كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه[4]، وإن مما يؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾ [5].

وهكذا فقد قامت الأديان السماوية متمثلة في اليهودية والنصرانية والإسلام على الايمان بالوحي الذي ينقل كلام الله إلى الأنبياء، ومن ثم، فقد أشير إلى أن مصطلح وحي قد عرف عند اليهود والنصارى فوردت عبادة "أوحي Aohy العبرانية والآرامية ووحي Wahaya في الحبشة... كما اعتقد اليهود أن الوحي هو كلام يهوه أوحي إلى أنبياءه، فكتبهم هي كتب يهوه"[6].

ويبدو أن فكرة الوحي لم تكن غريبة عن أذهان عرب ما قبل الإسلام، لذا فإن مشركي مكة لم يفاجأوا حينما علموا بخبر نزول الوحي على الرسول ﷺ وإن كانوا قد قابلوا ذلك بنوع من الاستخفاف، "فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أن غلام عبد المطلب ليكلم من السماء"[7]. ولكن المشركين أخذوا بمقاومة الرسول ﷺ وتكذيبه حينما "عاب الله آلهتهم التي يعبدونها دونه، وذكر هلاك آبائهم الذي ماتوا على

---

(1) سورة الحج، الآية 26.

(2) دروزة: عصر النبي، ص 797، جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام، ص 170-171.

(3) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج 3، ص 399.

(4) جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام، ص 125.

(5) سورة النساء، الآية 163.

(6) المرجع نفسه، ص 125.

(7) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 119.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكفر"[1].

وتشير المصادر إلى أن الوحي لم ينزل على الرسول ﷺ فجأة بل سبقه إعداد روحي ونفسي طويل، وكان أبرز مظاهر هذا الإعداد النفسي، "الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح"[2]، فمكث على ذلك ما شاء الله أن يمكث[3] كما يذكر ابن إسحاق، أي فترة طويلة نسبياً، ربما امتدت عدة سنوات، ثم "حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء"[4].

وتشير بعض المصادر إلى أن الرسول ﷺ كان يخرج إلى غار حراء في شهر رمضان، وأنه كان يصحب معه أهله، وربما كان ذلك مما اعتادت قريش أو من يتنسكون منها ممارسته، فقد ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ خرج في شهر رمضان "كما كان يخرج لجواره، وخرج معه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله عز وجل فيها برسالته ورحم العباد به جاءه جبريل بأمر الله تعالى"[5].

لقد ذكر ابن إسحاق أن أول مرة جاء فيها جبريل إلى الرسول ﷺ، كانت في المنام. فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: "فجاءني وأنا نائم، فقال: اقرأ، فقلت وما أقرأ! فعاد لي بمثل ذلك، ثم قال: اقرأ، فقلت وما أقرأ؟ وما أقولها إلا تنجيا أن يعود لي بمثل الذي صنع بي. فقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾، ثم انتهى، فانصرف عني وهببت من نومي وكأنما صور في قلبي كتاب"[6].

ويلاحظ أن مسألة مجيء جبريل إلى الرسول ﷺ وهو في المنام هي ليست موضع اتفاق بين الروايات التاريخية، حيث أن العديد من الروايات قد ذكرت خبر نزول الوحي على الرسول ﷺ دون الإشارة إلى أنه كان في حالة النوم[7]. ويبدو أن أهمية هذا

---

(1) المصدر نفسه: ج 1، ص 199.

(2) ابن المبارك: التجريد الصريح، ج 1، ص 199.

(3) ابن إسحاق: المغازي، ص 10.

(4) ابن المبارك: التجريد الصريح، ج 1، ص 5.

(5) ابن إسحاق: المغازي، ص 101.

(6) المصدر نفسه، ص 101، الطبري: تاريخ، ج 2، ص 301.

(7) ابن المبارك: التجريد الصريح، ج 1، ص 5، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 196، الطبري: تاريخ، ج 2، ص 298 – 299.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخلاف ليست كبيرة طالما أن جميع الروايات تسلم بأن رؤى الرسول ﷺ جميعها صالحة وأن الوحي كان يأتيه في المنام كما يأتيه في حالات اليقظة.

ويضيف ابن إسحاق أن الرسول ﷺ قد أصابه اضطراب وقلق شديدان من جراء رؤيته للوحي في المنام، وظن أن ذلك من قبيل الرؤى التي تظهر للشعراء والمجانين، فقال يحدث نفسه أن الأبعد - يعني نفسه ﷺ - لشاعر أو مجنون؟ ثم قلت: لا تحدث قريش عني بهذا أبدًا، لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها، فلأستريحن، فخرجت ما أريد غير ذلك. فبينما أنا عامد لذلك سمعت مناديًا ينادي من السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، فرفعت رأسي إلى السماء انظر، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفت انظر إليه، وشغلني عن ذلك وعما أريد، فوقفت: ما أقدر على أن أقدم أو أتاخر، ولا أصرف وجهي في ناحية من السماء إلا رأيته فيها. فما زلت واقفًا ما اتقدم ولا أتأخر حتى بعثت خديجة رسولها في طلبي، حتى بلغوا مكة ورجعوا. فلم أزل كذلك حتى كاد النهار يتحول، ثم انصرف عني. وانصرفت راجعًا إلى أهلي"[1].

إن رؤية الرسول ﷺ لجبريل على النحو الذي وصفته رواية ابن إسحاق قد جاءت لتثبيت قناعته بصحة ما رآه في المنام وأنه قد غدا رسول الله إلى الناس. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الصورة من صور نزول الوحي بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[2].

إن اضطراب الرسول ﷺ وقلقه من جراء نزول الوحي عليه يدل على أن هذا الأمر كان بعيدًا عن تفكيره على الرغم من تأملاته الروحية الطويلة واحتكاكه ببعض الباحثين عن دين إبراهيم من الأحناف. وقد صارح زوجته خديجة بحقيقة قلقه الذي كان يحسه ويعذبه حتى بعد مشاهدته لجبريل ورؤيته له رأي العين، غير أن خديجة لم تفاجأ بما أخبرها به، ولم تصدم مما سمعته، مما يدل على إحاطتها بشيء من أخبار مثل هذه الحالات الروحية، لذا فقد أجابته مطمئنة، بأنها تتوقع له أن يكون نبي هذه الأمة لما

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص 102.

(2) سورة التكوير، الآية 19 – 27، تراجع أيضا: سورة النجم، الآية 1 – 12.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعلمه من صدق حديثه وعظم أمانته وحسن خلقه، وصلة رحمه[1].

ومن أجل طمأنينة الرسول ﷺ على حقيقة ما شاهد، فإن خديجة كما يقول ابن إسحاق "قامت فجمعت ثيابها عليها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها، وكان قرأ الكتب، وكان قد تنصر وسمع من التوراة والإنجيل، فأخبرته الخبر، وقصت عليه ما قص عليها رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع. فقال ورقة: "قدوس، قدوس والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة، إنه لنبي هذه الأمة، وإنه ليأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عليه السلام، فقولي له فليثبت"[2].

وهكذا فقد قبل الرسول ﷺ حقيقة نزول الوحي عليه، واستقر في وعيه أنه قد غدا نبي هذه الأمة، لذا فقد أخذ يتطلع إلى ساعات نزول الوحي بشوق وتلهف، فلما فتر نزول الوحي عليه، صعب عليه الأمر "وأحزنه، ثم قال في نفسه - كما يذكر ابن إسحاق - قد خشيت أن يكون صاحبي قد قلاني وودعني، فجاء جبريل بسورة والضحى، يقسم له به، وهو الذي أكرمه، ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾[3]. وفي رواية أخرى عن خديجة، زوجة الرسول ﷺ، يذكر ابن إسحاق أنا قالت: "لما أبطأ على رسول الله ﷺ الوحي، جزع من ذلك جزعًا شديدًا، فقلت له لما رأيت من جزعه: لقد قلاك ربك مما يرى من جزعك. فأنزل الله، ما ودعك ربك وما قلى"[4].

ولم تذكر لنا المصادر المبكرة مدة الفترة التي انقطع فيها الوحي عن الرسول ﷺ[5]، ما عدا ابن سعد، الذي أشار إلى أن الرسول ﷺ "مكث أيامًا لا يرى جبريل"[6] بعد نزوله عليه في غار حراء، فحزن بسبب ذلك "حزنا شديدًا حتى كان يغدو إلى ثبير مرة وإلى حراء مرة يريد أن يلقي نفسه منه"[7].

غير أن بعض المصادر المتأخرة قد ذهبت إلى أن انقطاع الوحي عن الرسول ﷺ قد استمر لفترة طويلة تتراوح بين السنتين والنصف إلى الثلاث سنوات[8]، ويبدو أن ما

---

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص 102.

(2) المصدر نفسه، ص 102.

(3) المصدر نفسه، ص 115.

(4) المصدر نفسه، ص 116.

(5) المصدر نفسه، ص 115 – 116، عروة بن الزبير: مغازي رسول الله، ص 100 – 103، ابن المبارك: التجريد الصريح، ج 1، ص 6، الطبري: تاريخ، ج 2، ص 300، 305 – 306.

(6) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 196.

(7) المصدر نفسه، ج 1، ص 197.

(8) السهيلي: الروض الآنف، ج 1، ص 161، ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج 1، ص 120.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذهبت إليه هذه المصادر لا يستند إلى أدلة قوية بدليل عدم إشارة المصادر المبكرة إليه، وتعارضه مع مجمل أخبار الدعوة في المرحلة المكية. وربما كان ما ذهب إليه ابن سعد حول انقطاع الوحي عن الرسول ﷺ هو الأقرب للصواب، وإن كنا نرجح أن مدة انقطاع الوحي كانت أطول من مجرد بضعة أيام التي توحي بها رواية ابن سعد، إذ لو كان انقطاع الوحي محددًا بهذه الأيام القليلة، لما كان ثمة داع لقلق الرسول ﷺ الشديد وحزنه بالصورة التي وصفته بها المصادر التاريخية. فلا بد أن انقطاع الوحي قد استمر لفترة تبرر ذلك القلق والحزن الذي انتاب الرسول ﷺ بسببه.

ومهما يكن من أمر، فإن الوحي قد تتابع نزوله على الرسول ﷺ بعد بذلك، واتخذ صورًا أخرى بالإضافة إلى ما ذكر آنفًا، فقد أشارت المصادر إلى أن الرسول ﷺ سئل عن كيفية مجيء الوحي إليه، فأجاب بقوله: "أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال.... قالت عائشة رضي الله عنها، ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقا"[1]. كما أشير إلى أن الملك كان يتمثل في بعض الأحيان في صورة رجل فيكلم الرسول فيعي عنه ما يريد من موضوع الوحي[2].

وقد أشارت المصادر إلى صور وحالات عن نزول الوحي بالإضافة إلى ما مر ذكره، غير أن المؤرخ لا يستطيع التوسع في عرض ومناقشة ذلك، لأن الوحي من أمور الغيب التي يتجاوز ادراك حقيقتها حدود العقل الإنساني وإمكانياته.

وهكذا، فقد أخذت آيات القرآن الكريم تنزل على الرسول ﷺ بوساطة الوحي حسب احتياجات الدعوة الإسلامية بالآية والآيتين والخمس والعشر. وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم نفسه بقوله: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾[3].

لقد كانت آيات القرآن تنزل على الرسول ﷺ لتجيب على تساؤل أو لتحل مشكلة أو لتنشئ قاعدة جديدة، وكما هو موضح من أسلوب معالجة الآيات القرآنية لتلك الأمور أو طريقة خطابها للرسول ﷺ[4]. لقد واكب الخطاب القرآني تطور الدعوة

---

(1) ابن المبارك: التجريد الصريح، ج 1، ص 5.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 5.

(3) سورة الإسراء، الآية 106.

(4) راجع على سبيل المثال: سورة المجادلة، الآية 1، سورة البقرة، الآية 144، سورة الأنفال، الآية 1.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونموها منذ نزل على رسول الله ﷺ في حدود سنة 609 م وحتى وفاته بحدود سنة 632م، وبذلك يكون القرآن الكريم هو المرآة الصادقة التي تعكس تاريخ الدعوة الإسلامية وتطورها في عصر الرسالة[1].

(1) من أجل مزيد من التفاصيل، يراجع بحثنا: الوحي وعلاقته بالقرآن والسنة، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، بغداد 1972، العدد 4.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دولة المدينة وتنظيماتها الأولى

أولاً: نشأة سلطة الرسول ﷺ في المدينة:

لم يتمتع أهل المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها بوجود سلطة مركزية أو "حكومة ملأ" تتولى توفير الأمن والاستقرار فيها، وذلك بسبب انقسام أهل المدينة إلى خمس قبائل، اثنتان منها عربية وثلاث منها يهودية. وكانت حدة المنافسة بين هذه القبائل كثيرًا ما تقود إلى حروب ومصادمات مسلحة بينها كان آخرها حرب بعاث.

وقد ترتب على هذا الواقع أن مدينة يثرب لم تشهد ظهور " دولة - مدينة " تتولى توحيد سكانها والعناية بمصالحهم العامة، على الرغم من توفر كافة شروط دولة المدينة فيها عدا السلطة الموحدة، من إقليم وشعب وسيادة.

وهكذا، فإن نشوء دولة - المدينة في يثرب، قد ارتبط بنشأة سلطة الرسول ﷺ فيها، ونجاحه في تقوية وتوسيع هذه السلطة بحيث تشمل جميع سكان مدينة يثرب التي عرفت بعد هجرة الرسول ﷺ إليها باسم مدينة الرسول، أو المدينة.

لقد بدأت سلطة الرسول ﷺ بالنسبة لأهل المدينة على شكل سلطة روحية تقوم على إيمانهم بأنه رسول الله إلى الناس، ومن ثم فإن من واجبهم أن يستسلموا لما يأتيهم به من أوامر وتوجيهات لأن هذه الأوامر هي في حقيقتها أوامر الله تعالى التي لا يجوز لمسلم أن يخرج عليها أو أن يعصيها.

وقد تولى القرآن الكريم في الكثير من الآيات بيان أن حق "السيادة" في الإسلام هو من حقوق الله تعالى، فهو خالق الكون والحياة والإنسان، ومن ثم "فهو مالك كل شيء وهو الحامي والراعي للمصالح العامة، وفيه يتجسم المجتمع ككل"[1].

غير أن الله في الإسلام لا يمارس السلطة بنفسه مباشرة، بل يعهد بمباشرتها إلى الرسول ﷺ الذي اختاره ليبلغ أوامره إلى الناس، وقد تجسدت هذه الأوامر بنصوص القرآن الكريم الذي نزلت آياته على الرسول ﷺ بصورة تدريجية. وبذلك أصبحت طاعة الرسول ﷺ واجبه على جميع المسلمين. فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا

---

(1) العلي، د صالح: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، بيروت 1969، ص 103

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (1)، ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (2).

وقد ثبتت بيعة العقبة الثانية التي عقدت بين الرسول ﷺ وبين المسلمين من أهل المدينة سلطة الرسول ﷺ السياسية على من آمن من أهل المدينة. وذلك لأن البيعة عقد رضائي، أعلن بموجبه المبايعون من أهل المدينة استعدادهم لطاعة الرسول ﷺ وتعهدهم بحمايته والدفاع عنه في مدينتهم(3). ولم تكن هذه البيعة مقصورة على الحماية السلبية لشخص الرسول ﷺ، وإنما هي حماية له ﷺ وهو يمارس نشاطه الفعال في نشر الدعوة بين الناس، وإطاعة أوامره في المنشط والمكره. ومن ثم فإن حدود هذه البيعة قابلة للتوسع، وهي تسمح بالانتقال من حدود الدفاع عن الرسول ﷺ في داخل المدينة إلى الهجوم والقتال إلى جانبه في خارجها. ويبدو أن هذا الاحتمال كان ماثلاً في ذهن الأنصار وهم يبايعون الرسول ﷺ بيعة العقبة الثانية. فقد روى ابن إسحاق أن العباس بن عبادة خاطب قومه بقوله: "يا معشر الخزرج، هل تدرون، علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إن نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله وإن فعلت خزي الدنيا والآخرة"(4). غير أن الأنصار مضوا في مبايعة الرسول ﷺ على أن لهم الجنة، إن وفوا بتعهداتهم له.

وهكذا فقد أصبح الرسول ﷺ بعد بيعة العقبة الثانية، ليس مجرد رسول يؤمن برسالته المسلمون من أهل المدينة، وإنما أصبح قائدًا سياسيا يمتثل لأوامره جميع الأنصار وكان من بينهم بعض رؤساء الأسر والعشائر من قبيلتي الأوس والخزرج من أمثال سعد بن معاذ، وأسيد بن الحضير، وسعد بن عبادة وغيرهم. وكان أول أمر أصدره الرسول ﷺ للأنصار هو أن يخرجوا له من بينهم اثني عشر نقيبا ليكونوا كفلاء على قومهم في المدينة من أجل ضمان وحدتهم وحسن تنظيمهم ريثما تتم هجرته وهجرة أصحابه المكيين إلى المدينة.

لقد كانت سلطات الرسول ﷺ الدينية والسياسية بعد وصوله إلى المدينة مقصورة على المسلمين من المهاجرين والأنصار بصورة رئيسة. غير أن طبيعة العلاقات والتحالفات القبلية في المدينة بين أفراد قبيلتي الأوس والخزرج واليهود قد سمحت

---

(1) سورة النساء، الآية 64.

(2) سورة النساء، الآية 80.

(3) العلي: الدولة في عهد الرسول، ص 69.

(4) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 446

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لسلطة الرسول ﷺ السياسية أن تمتد ولو بصورة محدودة لتمارس بعض التأثير على سكان المدينة كافة. ثم أخذ هذا التأثير يتسع ويتنامى مع انتشار الإسلام وزيادة قوة المسلمين حتى أصبح الرسول ﷺ صاحب السلطة العليا في المدينة، وغدت المدينة دولة ذات كيان سياسي مؤثر، وقد تحقق ذلك للرسول ﷺ كما سنوضح ذلك لاحقًا بعد كتابة الصحيفة التي تنظم العلاقات بينه وبين المهاجرين والأنصار واليهود.

ثانيًا: تنظيمات الرسول (ﷺ) في المدينة:

كانت المدينة حين قدوم الرسول ﷺ إليها أحوج ما تكون إلى إشاعة الحب والسلام والتعاون بين أهلها في إطار من التقوى وعبادة الله تعالى. لذا فقد عمل الرسول ﷺ على الدعوة للالتزام بهذه القيم وإشاعتها. فقد روي أن أول ما تحدث به الرسول ﷺ بعد وصوله إلى المدينة قوله: "يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام"(1).

ويبدو أن الرسول ﷺ كان يدرك جيدًا أن تحقيق هذه الأهداف وغيرها من الأهداف التي تساعد على تحقيق الوحدة بين أهل المدينة وتقوية وتوسيع السلطة والنظام في المدينة، تتطلب تحقيق مجموعة من الأعمال والتنظيمات فيها. لذا فقد ذكر أن الرسول ﷺ قام بإنجاز الأعمال الآتية خلال الأشهر الأولى من وصوله إلى المدينة:

1- إزالة أسباب العداء بين الأوس والخزرج:

لقد وجد الرسول ﷺ حين وصوله المدينة ونزوله عند بني عمرو بن عوف من الأوس أن أحد ابناء الخزرج. وهو أسعد بن زرارة قد خاف أن يأتي للسلام عليه لأنه كان يخشى أن يثأر منه الأوس لأنه كان قد قتل أحد أبنائهم في حرب بعاث. فلما علم الرسول ﷺ بالسبب. قال لسعد بن خيثمة ورفاعة ومبشرًا بني عبد المنذر: "أجيروه" قالوا: أنت يا رسول الله فأجره فجوارنا في جوارك، فقال رسول الله ﷺ: يجيره بعضكم "فقال سعد بن خيثمة: هو في جواري، ثم ذهب سعد بن خيثمة إلى أسعد بن زرارة في بيته فجاء به مخاصرة يده في يده ظهرًا حتى انتهى به إلى بني عمرو بن عوف. ثم قالت الأوس: يا رسول الله كلنا له جار، فكان أسعد بن زرارة بعد يغدو ويروح إلى رسول الله ﷺ"(2).

إن سياسة الرسول ﷺ المشار إليها آنفًا لتدل على أنه سعى منذ أن وصل قباء على مشارف المدينة على ممارسة دور الحكم المحايد الذي يعمل على دفن حزازات

---

(1) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 235

(2) السمهودي: وفاء الوفا، ج 1، ص 249-250.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأحقاد الماضي وإقامة مجتمع موحد يقوم على المحبة والتعاون. لذا فقد أطلق اسما جديدًا على المسلمين من أبناء الأوس والخزرج مشتقًا من مناصرتهم له ولإخوانهم القريشيين فأسماهم بالأنصار. في الوقت الذي أطلق على المسلمين الذين غادروا مواطنهم السابقة في سبيل الله اسم المهاجرين. وبذلك أصبح المجتمع الإسلامي الجديد يتألف من المهاجرين والأنصار[1].

2– تأسيس مسجد قباء:

تعد الصلاة أقدم العبادات التي أداها الرسول ﷺ والمسلمون من أجل التقرب إلى الله تعالى، فكان من الطبيعي أن يولي مسألة تنظيم الأماكن العامة المكرسة لممارستها اهتمامًا كبيرًا وبخاصة وأن هذه الأماكن تتعدى وظيفة أداء فريضة الصلاة إلى إيجاد مركز عام للمسلمين يجتمعون فيه للتداول في أمورهم العامة وسماع توجيهات الرسول ﷺ وبذلك يمكن للمسجد أن يحل على نحو تدريجي محل المنتديات القبلية الضيقة. يقول ابن إسحاق: " فأقام رسول الله ﷺ بقباء في بني عمرو بن عوف، يوم الإثنين، ويوم الثلاثاء والأربعاء ويوم الخميس، وأسس مسجده"[2].

إن ما تقدم يدل على أن الرسول ﷺ قد اختار موقع المسجد وصلى فيه ثم قام بنو عوف بعد ذلك بتشييده [3]، وهو المسجد الذي أسس على التقوى، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم[4].

3 – بناء مسجد المدينة ومساكن الرسول:

بعد أن غادر الرسول ﷺ قباء متوجها إلى المدينة للاستقرار فيها، كانت مختلف عشائر المدينة تتنافس على شرف استضافته في دورها، فكان كلما مر بإحدى هذه العشائر جاؤوا إليه وأمسكوا بزمام ناقته قائلين: "يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة " فكان يعتذر إليهم بقوله: "خلوا سبيل الناقة فإنها مأمورة"[5] ويبدو أن الرسول ﷺ لم يرد أن يختار بنفسه النزول عند إحدى العشائر المدنية دون غيرها كي لا يفقد صفة الحياد المطلق في التعامل مع الجميع على قدم المساواة.

أخيرًا، فإن الناقة قد بركت - كما يروي ابن إسحاق - في الموضع الذي شيد فيه

---

(1) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 96، سورة الأنفال: الآية 72، سورة التوبة، الآية 100.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 494.

(3) السمهودي: وفاء الوفا، ج 1، ص 250.

(4) سورة البقرة: الآية 108.

(5) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 494.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مسجد الرسول ﷺ ومساكن زوجاته. وكان هذا الموضع مربدًا لغلامين يتيمين من بني النجار فاشتراه منهما الرسول ﷺ بعشرة دنانير[1].

وكان المربد الذي بركت فيه الناقة مجاورًا لدار أبي أيوب، خالد بن زيد من بني النجار- وهم أخوال جده عبد المطلب -، فنزل عنده حتى تم بناء المسجد ومساكنه[2].

لقد كان أمر بناء المسجد عل رأس أولويات الرسول ﷺ، لذا فقد أمر المسلمين بالمساعدة في بنائه وعمل هو بنفسه في البناء ليرغب المسلمين في العمل فيه فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه. فقال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا والنبي يعمل   لذاك منّا العمل المضلل

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون:

لا عيش إلا عيش الآخرة   اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة [3]

وهكذا تجلت روح الوحدة والتضامن بين أبناء المجتمع الجديد وهم يشاركون جميعًا بحماسة في بناء المكان الذي سيكون مركز الفعاليات الدينية والسياسية والعامة للأمة الناشئة.

لقد تم بناء جدران المسجد بمادة اللبن وجعل سقفه من جريد النخل، أما عمد المسجد فقد اتخذت من جذوع النخيل أيضًا. وكانت مساحته مائة ذرع مربعة أي ما يوازي ستين مترًا مربعًا.وقد وجهت قبلة المسجد إلى بيت المقدس، لأن المسلمين كانوا لا يزالون يتوجهون في صلاتهم إليها [4].

وقد بنى الرسول ﷺ إلى جانب المسجد مساكن لزوجاته من اللبن وسقفها بجذوع النخل والجريد. وكانت عبارة عن غرف صغيرة قصيرة البناء[5]. ويلاحظ أن الرسول ﷺ قد جعل مساكنه متصلة بالمسجد بحيث يخرج من بيته إليه مباشرة. وبذلك أصبح من السنة أن تبنى المساجد وتكون بيوت الولاة ودواوينهم مجاورة للمسجد، فالغرض من تأسيس المسجد كان دينيا لأداء الصلاة، وسياسيا لإيجاد رابطة للجماعة الإسلامية[6].

ويبدو أن عملية بناء المسجد ومساكن الرسول ﷺ قد استغرقت حوالي سبعة

---

(1) المصدر نفسه، ق 1، ص 495 ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 239

(2) المصدر نفسه، ق 1، ص 495-496

(3) المصدر نفسه، ق 1، ص 496

(4) ابن سعد: الطبقات، ج 3، ص 240، العلي: الدولة في عهد الرسول ص 84.

(5) المصدر نفسه، ج 1، ص 240، ابن كثير: السيرة، ج 1، ص 406.

(6) الشريف: مكة والمدينة، ص 386.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشهر. فقد ذكر ابن سعد أن مقام الرسول ﷺ في منزل أبي أيوب قد استمر سبعة أشهر انتقل بعدها إلى مساكنه[1].

وكان الرسول ﷺ قد بعث زيد بن حارثة وأبا رافع "وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ، وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد[2]، وبذلك استطاع أن يجمع شمل عائلته ويتفرغ لإدارة شؤون المسلمين من خلال مقره الجديد في مسجد المدينة.

4- المؤاخاة

إن المبادئ التي جاء بها الإسلام قد خلقت بين المؤمنين بها، ومنذ المرحلة المكية، روحًا من التعاطف والمودة والتعاون بصفتهم جماعة واحدة، في مواجهة من خالفها من المشركين.

وقد عمل الرسول ﷺ على معاملة أصحابه على قدم المساواة، وحث أتباعه الأغنياء على مساعدة الفقراء والمستضعفين من المؤمنين. لذا فقد روي أن أبا بكر الصديق قد قام بشراء سبعة من الأرقاء المسلمين الذين كانوا يعانون من تعذيب أسيادهم المشركين وأعتقهم في سبيل الله، وكان أبرزهم بلال الحبشي[3].

وهكذا أن العقيدة في الله قد استطاعت أن توجد بين المسلمين من أسباب التعاطف والتعاون والمحبة ما يوازي أو يتفوق على ما تخلق رابطة الأخوة في الدم. لذا فقد أطلق على العلاقة التي تشد المؤمنين بعضهم إلى بعض الأخوة في الله.

وبهذا المعنى المتقدم يمكن فهم ما أوردته بعض الروايات عن حصول مؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم "على الحق والمواساة"[4] دون أن تتعدى ذلك إلى ترتيب حقوق محددة بينهم كالحق في التوارث.

وحين أمر الرسول ﷺ أصحابه المكيين بالهجرة إلى المدينة بعد بيعة العقبة الثانية استقبلهم الأنصار بروح من الكرم والترحاب فأنزلوهم في دورهم على النحو الذي يبعث الراحة في نفوسهم.فقد تم توزيع المهاجرين على أساس عشائرهم حيث روعي أن يبقى مجموع أفراد العشيرة الواحدة في مكان واحد وينزلون على شخص واحد [5].

---

(1) ابن سعد: الطبقات، ج 3، ص 237.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 238.

(3) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 381-319.

(4) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج 1، ص 264، السمهودي: وفاء الوفا، ج 1، ص 267.

(5) العلي: الدولة في عهد الرسول، ص 85.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبعد وصول الرسول ﷺ إلى المدينة واستقراره فيها، تحول المهاجرين من أماكن إقامتهم الأولى في قباء وانتشروا في المدينة. وتشير بعض الروايات إلى أن الأنصار تنافسوا في استضافتهم في دورهم. فقد ذكر الواقدي "أن رسول الله ﷺ لما تحول من بني عمرو بن عوف إلى المدينه تحول أصحابه من المهاجرين، فتنافست فيهم الأنصار أن ينزلوا عليهم حتى اقترعوا فيهم بالسهمان، فما نزل أحدًا منهم على أحد الا بقرعة سهم"(1).

ويبدو أن الرسول ﷺ قد قدر أن إقامة المهاجرين على الأنصار لا يمكن أن تكون حالة دائمة، لذا فقد سعى إلى الحصول على أراض وتوزيعها على المهاجرين لبناء مساكن لأنفسهم عليها. فقد ذكر البلاذري أن الرسول ﷺ "خط لأصحابه في كل أرض ليست لأحد، وفيما وهبت له الأنصار من خططها"(2).

إن موقف الأنصار الآنف الذكر من المهاجرين قد أثر في نفوسهم كثيرًا. لذا فقد عبروا عن امتنانهم العميق تجاه إخوانهم الأنصار بقولهم للرسول ﷺ "يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل أو أحسن بذلا في كثير، كفونا المؤنه واشركونا في المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم لهم"(3).

وعلى الرغم من كل ما قدمه الأنصار من استضافة وحسن مواساة لإخوانهم المهاجرين، إلاّ أن كثيرًا من المهاجرين كانوا يجدون صعوبة في المواءمة مع بيئة المدينة لاعتبارات مناخية واجتماعية. فقد أورد البخاري في حديث عن عائشة أن أرض المدينة كانت موبوءة بسبب كثرة المستنقعات فيها، فكانت المدينة على حد قولها: "أوبأ أرض الله"(4). وربما كان ذلك الوباء هو مرض الملاريا(5). ويبدو أنه قد أصاب العديد من المهاجرين المكيين لضعف مناعتهم تجاهه كأبي بكر الصديق وبلال الحبشي. وقد روى أن الرسول ﷺ "لما قدم المدينة هو وأصحابه أصابتهم حمى المدينة حتى جهدوا مرضاً، وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ، حتى كانوا وما يصلون إلا وهم قعود"(6).

ويلاحظ أن المرض وصعوبة التلاؤم مع البيئة الجديدة كان يذكي في نفوس

---

(1) الواقدي: المغازي، ج 1، ص 378.

(2) البلاذري: أنساب الأشراف، القاهرة 1959، ج 1، ص 270، البلاذري: فتوح البلدان، ص 30.

(3) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج 1، ص 265

(4) ابن المبارك: التجريد الصحيح، ج 1، ص 120 – 121.

(5) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 381-319.

(6) ابن كثير: السيرة النبوية، ج 1 ص 409.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المهاجرين الحنين إلى موطنهم الأول مكة، فقد روي أن بلال الحبشي كلما أقلعت عنه الحمى" يرفع عقيرته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي أذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل

- ثم ينطلق قائلا - اللهم العن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء"(1).

في ضوء ما تقدم، فقد ذكر السهيلي أن رسول الله ﷺ آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار "ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض"(2). فكان السبب الذي دعا الرسول ﷺ لإعلان المؤاخاة حسب رأي السهيلي اجتماعيا - اقتصاديا.

وقد ذكر ابن إسحاق أن الرسول ﷺ حينما أراد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، قال لهم: "تآخوا في الله أخوين أخوين" (3). ويقدم لنا ابن سعد تفصيلات أكثر عن المؤاخاة فيقول: "لما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بينهم على الحق والمؤاساة يتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام وكانوا تسعين رجلاً، خمسة وأربعون من المهاجرين، وخمسة وأربعون من الأنصار. ويقال: كانوا مائة، خمسون من المهاجرين وخمسون من الأنصار، وكان ذلك قبل بدر، فلما كانت وقعت بدر وأنزل الله تعالى: ﴿ وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ فنسخت هذه الآية ما كان قبلها، وانقطعت المؤاخاة في الميراث، ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه"(4).

ويلاحظ أن الروايات قد اختلفت في تحديد تاريخ إعلان الرسول ﷺ للمؤاخاة، فذكر أن المؤاخاة كانت "بعد بنائه (عليه السلام) المسجد، وقد قيل كان ذلك والمسجد يبنى، وقال أبو عمر بعد قدومه (عليه السلام) المدينة لخمسة أشهر"(5).

ويبدو أن المؤاخاة قد أعلنت والمسجد يبنى، وربما كان ذلك لخمسة أشهر بعد وصول الرسول ﷺ إلى المدينة وذلك لأن الرسول ﷺ: "حالف بين المهاجرين

---

(1) ابن المبارك: التجريد الصحيح، ج 1، ص 120 - 121.

(2) السهيلي: الروض الآنف، ج 2، ص 18.

(3) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 505.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج 3، ص 237-239.

(5) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج 1، ص 265.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والأنصار في دار أنس"[1]. فلو كان الرسول ﷺ قد أكمل بناء المسجد لما عقد المؤاخاة في دار أنس لأن المسجد هو المكان الأنسب لمثل هذا الأمر. ونظرًا لأن إكمال بناء المسجد قد تم في حدود الشهر السابع للهجرة كما قدمت، فلا بد أن المؤاخاة قد تمت قبل ذلك.

وقد ذهب أحد المؤرخين إلى أن المؤاخاة هي "تسمية إسلامية للنظام العربي القديم، وهو نظام الحلف"[2]، إلاّ أن الدكتور صالح العلي يرى أن المؤاخاة "تختلف عن الحلف من حيث أن لها سمة اجتماعية أعمق وتتبعها التزامات مالية"[3] وقد أوضح الدكتور خالد العسلي أن إعلان المؤاخاة يعود بالدرجة الأولى إلى رغبة الرسول ﷺ في ألاّ يعامل الأنصار المهاجرين معاملة الحلفاء لأن الحليف على وفق التقاليد العربية أقل منزلة في القبيلة من الابن الصريح، وذلك لأن الحليف يعيش تحت حماية القبيلة، ويورث من قبلها إن توفي. كما أن ديته هي نصف دية الصرحاء ولا يقتل الصريح بالحليف[4]. لذا فقد أراد الرسول ﷺ من المؤاخاة "أن يضمن إقامة علاقة بين المهاجرين والأنصار تقوم على المساواة التامة في الحقوق والواجبات"[5].

يتضح مما تقدم أن السبب الرئيسي للمؤاخاة كان هدفًا اجتماعيا يستهدف إقامة علاقة تقوم على المساواة والمؤاساة بين المهاجرين والأنصار. أما العامل الاقتصادي فكان عاملاً ثانويا فيها لأن الأنصار كانوا يقومون بتقديم المساعدة الاقتصادية لإخوانهم المهاجرين قبل إعلان المؤاخاة واستمروا على تقديمها بعد نسخ حكم التوارث الذي تضمنته.

ولقد لوحظ أن الجانب الرابح من حكم التوارث الذي تضمنته المؤاخاة هم المهاجرون إذ لم تكن لهم أملاك يورثونها، أما الأنصار فكانت لهم الأموال، وكان للمهاجر حق موارثة من يؤاخيه من الأنصار إذا لم يكن له وريث من الدرجة الأولى والثانية، ومع أن التطبيق العملي للميراث محدود الأثر، فإنه يثبت مبدأ ويؤكد الصلة بين المتآخين[6].

---

(1) ابن سعد: الطبقات، ج 3، ص 239.

(2) الشريف، مكة والمدينة، ص 386.

(3) العلي: الدولة في عهد الرسول، ص 86.

(4) العسلي، د. خالد: نظام المؤاخاة في عهد الرسول، مجلة دراسات للأجيال، العددان الرابع والخامس، بغداد 1983، ص 27.

(5) المرجع نفسه، ص 36.

(6) العلي: الدولة في عهد الرسول، ص 87.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم تستمر أحكام التوارث في التطبيق إلا فترة وجيزة تقدر بحدود أربعة عشر شهراً، نزلت بعدها سورة الأنفال في أعقاب معركة بدر، حيث أعادت التوارث إلى ما كان عليه بين الأقرباء، وذوي الأرحام عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾[1].

أما مبادئ الإخوة العامة بين المسلمين بما تقوم عليه من مساواة وتعاون وتآزر فقد استمرت قائمة بين المسلمين. وأخذت آيات القرآن الكريم تنزل على الرسول ﷺ لتأكيد معانيها في العديد من المناسبات نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[2]، ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[3].

5- إعلان الصحيفة:

أورد ابن إسحاق بعد أن تحدث عن بناء الرسول ﷺ للمسجد وقبل أن يعلن المؤاخاة، نص "الكتاب" الذي كتبه رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار الذي "وادع فيه يهود وعاهدهم"[4]، ويتألف هذا الكتاب حوالي خمسين فقرة تنظم العلاقات السياسية والاجتماعية والدينية بين مختلف من الفئات التي يتكون منها أهل المدينة، وبين الرسول ﷺ بصفته رسولا ورئيس دولة، لذا فقد عد بعض الباحثين المعاصرين هذا الكتاب أو الصحيفة بمثابة دستور للمدينة[5].

ويلاحظ أنه في الوقت الذي أورد ابن إسحاق هذه الصحيفة من غير الإشارة إلى سندها أي كيفية وصولها إليه مما يشكل نقطة ضعف في مصداقية الصحيفة، فإن أبو عبيد القاسم بن سلام قد أورد الصحيفة كاملة مع سندها، مما يعزز الثقة فيها[6]، مما يؤكد صحة الصحيفة من حيث السند[7].

فضلا عما تقدم فإن مضمون الصحيفة ولغتها تنسجمان مع طبيعة الفترة التي

---

(1) سورة الأنفال: الآية ، 75.

(2) سورة الحجرات: الآية ، 10.

(3) سورة آل عمران: الآية ، 103.

(4) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 501.

(5) راجع على سبيل المثال، الشريف: مكة والمدينة، ص 387.

(6) ابن سلام: الأموال، ص 202 – 207.

(7) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج 1، ص 262، ابن كثير: السيرة النبوية، ج 1 ص 410، ابن المبارك: التجريد الصحيح، ج 1، ص 119.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كتبت فيها، والعلاقات التي كانت سائدة في المدينة بين فئاتها المختلفة، مما يجعل هذه الصحيفة موضوع ثقة من قبل الباحثين من حيث المتن والسند(1)، لذا فقد لقيت عناية كبيرة من قبل المؤرخين وبخاصة المعاصرين منهم.

غير أن دراسة الصحيفة وتفسير مضامينها تثير العديد من التساؤلات عن طبيعتها، وتاريخ كتابتها، وهل هي صحيفة واحدة أم عدة صحائف كتبت في أوقات متباينة، ثم جمعت بعد ذلك في صحيفة واحدة. ثم ما التفسير الدقيق لكثير من المحاور التي عالجتها، إن الإجابة على هذه التساؤلات جميعًا تتطلب عرض كل مسألة ومناقشتها بصورة مستقلة وحسب التفصيل الآتي:

أ. طبيعة الصحيفة:

يفهم من تقديم ابن إسحاق للصحيفة أنها معاهدة تمت بين الرسول ﷺ وبين المهاجرين والأنصار واليهود، حيث ذكر أن رسول الله ﷺ "كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم(2). إن تعبيرات مثل وادع، وعاهد، وشرط واشترط، تدل على أن هذا الكتاب كان معاهدة. غير أن افتقار الكتاب إلى ذكر الأطراف التي عقدت هذه المعاهدة وعدم الإشارة إلى كاتبها والموقعين عليها كما هو الأمر في معاهدات الرسول ﷺ التي وقعها مع قريش في صلح الحديبية وغيرها يجعلنا نشك في صحة وصف هذا الكتاب بأنه معاهدة. بل إن الفقرة الأولى من الكتاب تدفعنا إلى القناعة بأن الكتاب ليس معاهدة كما يفهم من كلام ابن إسحاق، وإنما هو إعلان صادر من جانب الرسول ﷺ بصفته رسول الله ﷺ ورئيس دولة المدينة، تقول الصحيفة: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم امة واحدة من دون الناس"(3).

إن النص المتقدم يؤكد أن الصحيفة إعلان من جانب واحد، وليس معاهدة أو عقدًا بين طرفين، وإن الغاية من هذا الإعلان هي تنظيم العلاقات العامة بين أهل المدينة وبين الرسول ﷺ باعتباره صاحب السلطة العليا فيها، غير أن ذلك لا يمنع من القول أن من المحتمل أن تكون قد سبقت ذلك الإعلان اتصالات ومفاوضات بين الرسول ﷺ وبين مختلف فئات السكان من أهل المدينة انتهت بتفويض الرسول ﷺ

(1) الشريف: مكة والمدينة، ص 312، الدولة الإسلامية الأولى، ص 75.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 501.

(3) المصدر نفسه، ق 1، ص 501.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

صلاحية إعلان هذا الكتاب أو الصحيفة لتنظيم الأوضاع الدستورية في المدينة.

ب. تاريخ إعلان الصحيفة:

اختلف الباحثون المعاصرون في تحديد تاريخ إعلان الرسول ﷺ للصحيفة، وذلك لأن ابن إسحاق وابن سلام وغيرهما لم يذكروا تاريخ الصحيفة عند إيرادهم لها. فذكر بعض الباحثين أنها قد قد كتبت في الشهر الخامس من وصول الرسول ﷺ إلى المدينة[1]، في حين ذهب البعض الآخر أنها قد كتبت قبل معركة بدر دون أن يحدد تاريخ كتابتها بدقة[2]، غير أن باحثين آخرين يميلون إلى أنها كتبت بعد معركة بدر[3]، لأن مركز الرسول ﷺ بعد انتصاره في هذه المعركة كان يؤهله لأن يملي شروطه على أهل المدينة وبخاصة اليهود والمشركون منهم.

وقد اتجه بعض الباحثين إلى عدم الموافقة على تحديد تاريخ واحد لكتابة الصحيفة. ومن ثم فقد قاموا بتجزئتها إلى عدة صحائف، وحاولوا التوصل إلى تاريخ محدد لكل منها حسب قوة مركز الرسول ﷺ وطبيعة العلاقات بين سكانها والمدينة[4].

ويبدو من دراسة وجهات النظر المختلفة أن هنالك توسعًا في استخدام الرأي في محاولة تحديد تاريخ الصحيفة قبل استنفاد الجهد في استقراء النصوص التي وردت عنها في مختلف المصادر. ونورد فيما يأتي بعض مما أوردته المصادر من نصوص ومعلومات تساعد على تحديد تاريخ كتابة الصحيفة:

1. أورد ابن إسحاق الصحيفة بعد حديثه عن بناء المسجد وقبل أن يتحدث عن المؤاخاة[5]. مما يدل على أن الصحيفة قد كتبت في هذه الفترة أي بين الشهر الخامس والسابع للهجرة.
2. يقول ابن إسلام عن تاريخ كتابة الصحيفة: "وإنما كان لهذا الكتاب فيما نرى حدثان، مقدم رسول الله ﷺ المدينة، قبل أن يظهر الإسلام ويقوى"[6]، إن قول ابن سلام أن الصحيفة كتبت حدثان مقدم رسول الله ﷺ المدينة دليل على أنها قد كتبت في الأشهر الأولى من مقدمه ﷺ وليس أبعد من ذلك كثيرًا.
3. أورد الواقدي نصًا مهما يساعد على تحديد تاريخ كتابة الصحيفة وطبيعة علاقته

(1) الحديثي: الأمة والدولة، ص 119.

(2) فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية، ص 11.

(3) العلي: الدولة في عهد الرسول، ص 104.

(4) وات: محمد في المدينة، ص 343-347.

(5) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 501 – 504.

(6) ابن سلام: الأموال، ص 207.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باليهود في هذه المرحلة جاء فيه: " لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وادعته يهود كلها، وكتبت بينه وبينها كتابًا، والحق رسول الله ﷺ كل قوم بحلفائهم، وجعل بينه وبينهم أماناً، وشرط عليهم شروطاً فكان فيما شرط أن لا يظاهروا عليه عدوا، فلما أصاب رسول الله ﷺ أصحاب بدر، وقدم المدينة، بغت اليهود وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد"[1]. إن تأكيد هذا النص أن الكتاب قد كتب بعد قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة وقبل معركة بدر بزمن طويل نسبياً على ما يبدو ينفي الرأي الذي يذهب إلى أن الصحيفة قد كتبت بعد معركة بدر، ويرجح الرأي الذي يميل إلى أنها قد كتبت في الأشهر الأولى من الهجرة.

4. لم نعثر على أي نص يشير إلى أن الصحيفة كانت في الأصل عدة صحائف، ثم جمعت بعد ذلك، لذا فإنه ليس بالإمكان قبول الفرضية التي تذهب إلى أن الصحيفة قد كتبت في أوقات مختلفة لتعارضها مع النصوص التاريخية، وعدم وجود أساس متين تستند إليه لإثبات وجهة نظرها.

بناءًا على ما تقدم، فإن الرسول ﷺ قد كتب الصحيفة وأعلنها في الأشهر الأولى من هجرته إلى المدينة، وإنها جاءت متزامنة مع إعلان المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وبناء المسجد، وبذلك تكامل البناء الاجتماعي والديني مع البناء السياسي لدولة المدينة، مما أفسح المجال أمام الرسول ﷺ لتنظيم الجهاد ضد مشركي مكة من خلال السرايا والغزوات، كما سنوضح ذلك لاحقًا.

جـ تنظيمات الصحيفة:

تقدم الصحيفة صورة للتنظيم القانوني الذي وضعه الرسول ﷺ لتنظيم أوضاع دولة – المدينة في مراحلها المبكرة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية. وقد شكلت فكرة إيجاد "أمة واحدة من دون الناس " المحور المركزي الذي دارت حوله مختلف الاحكام والمعالجات في الصحيفة لذا سنتولى دراسة تنظيمات الصحيفة في إطار هذه الفكرة:

1. **الأمة الواحدة وأهل المدينة:** إن كلمة امة قد وردت في معاجم اللغة العربية في ثمانية معان مختلفة [2]. وقد استعمل القرآن الكريم هذه الكلمة في حوالي 64

(1) الواقدي: المغازي، ج 1، ص 176؛ راجع أيضًا، البلاذري: فتوح البلدان، ص 30.

(2) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج 4، ص 76، رضوان السيد: الأمة والجماعة والسلطة، ص 43-44.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آية[1]، وبستة معاني مختلفة، كان أبرزهما معنيان هما: الجماعة الواحدة التي تعتنق دينا واحدًا، وأتباعه الذين أرسل الله لهم رسولا سواء آمنوا به أم لم يؤمنوا [2].

لذا فإن التوصل إلى فهم دقيق لمعنى الأمة في الصحيفة يتطلب الاستقراء الدقيق لمعنى النصوص التي وردت فيها. جاء في بداية الصحيفة: " هذا كتاب محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس"[3]، كما جاء فيها حسب رواية ابن إسحاق: " وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ – أي يهلك – إلا نفسه وأهل بيته... "[4]، أما ابن سلام فإنه يذكر صيغة هذه الفقرة على نحو مختلف قليلاً إلاّ أن دلالة الاختلاف كبيرة فيقول: "وإن يهود بني عوف ومواليهم وأنفسهم أمة من المؤمنين،...." [5].

يظهر من النصوص الآنفة الذكر أن الأمة في المدينة قد تشكلت من المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، أي من المهاجرين والأنصار، ولكنها لم تكن مقصورة عليهم، بل إنها قد اتسعت لتشمل، من تبعهم، فلحق بهم وجاهد معهم، أي كل من ارتضى أن يكون معهم من أهل المدينة. وبذلك شملت الصحيفة المشركين من أبناء قبيلتي الأوس والخزرج. كما عدّت الصحيفة يهود بني عوف وغيرهم من اليهود المتحالفين مع بطون الأوس والخزرج أمة مع المؤمنين، وفي رواية أخرى أمة من المؤمنين، وذلك لأنهم قد ارتضوا أن يعيشوا في إطار الأمة على وفق المبادئ التي جاءت بها الصحيفة.

يتضح مما تقدم أن الأمة الناشئة في المدينة هي كيان سياسي يختلف عن القبيلة من حيث أن القبيلة تقوم على رابطة الدم والقرابة بين أفراد القبيلة، في حين تتجاوز الأمة حدود الروابط القبلية لتضم في إطارها أكثر من قبيلة، كما أن الأمة تتخذ من العقيدة الدينية أو الولاء السياسي لها أساسًا للترابط بين أفرادها. فهي من هذه الناحية أوسع من مفهوم الملة أو الجماعة الدينية التي تكون مقصورة على اتباع عقيدة واحدة. وبذلك كانت الأمة حسبما حددتها الصحيفة صيغة وسطاً، أو صيغة ثالثة بين الجماعة

---

(1) الحديثي: الأمة والدولة، ص 231.

(2) رضوان السيد: الأمة والجماعة والسلطة، ص 44-48.

(3) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 501.

(4) المصدر نفسه، ق 1، ص 503.

(5) ابن سلام: الأموال، ص 204.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الواحدة التي تعتنق دينا واحدًا، وبين الجماعة الذين أرسل الله لهم رسولا سواء آمنوا به أم لم يؤمنوا.

إن الأمة الجديدة هي الجماعة التي ارتضت أن تعيش في إطار النظام الإسلامي وتحت قيادة الرسول ﷺ سواء أكانوا أفرادها قد آمنوا بالرسالة الإسلامية أم لم يؤمنوا بها بعد. وهكذا شكلت الأمة الإطار السياسي الذي تعيش فيه جميع الفئات التي ارتضت أن "يمثل الإسلام فكروية الإطار" الذي تعيش فيه حياتها السياسية[1].

إن هذه الحقيقة، قد جعلت المسلمين من المهاجرين والأنصار يشكلون النواة المركزية للأمة التي تعمل على تحقيق أهدافها والجهاد في سبيلها، في الوقت الذي كان ينتظر من الفئات الأخرى من مشركين ويهود أن يلعبوا دورًا مساعدًا ومساندًا للمسلمين وفقًا لأحكام الصحيفة التي سنوضحها في الصفحات الآتية[2].

إن الأمة في صيغتها التي وضعتها الصحيفة قد جعلت منها إطارًا سياسيا مفتوحًا لانضمام كل الأفراد والجماعات التي ترتضي الحياة في إطارها، وبذلك أفسحت مجال النمو والتطور لدولة المدينة لتتحول إلى دولة تضم معظم القبائل العربية في أواخر حياة الرسول ﷺ ثم لتتسع وتتحول في عهد الخلفاء الراشدين إلى دولة عالمية تضم شعوبا وقبائل متنوعة تعيش جميعًا في إطار النظام الإسلامي.

2- التنظيم القبلي والأمة: لم تحاول الصحيفة إلغاء النظام القبلي الذي كان يعيش الناس في إطاره منذ زمن بعيد، بل إنها اعترفت به أساسًا تقوم عليه التزامات الأفراد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وحاولت في الوقت نفسه تعديله وتشذيبه ليتفق مع فكرة الأمة الواحدة[3].

وهكذا فقد تألفت الأمة من مجموعة قبائل وعشائر وليس من مجموعة أفراد مستقلين[4]، فنصت الصحيفة على أن الأمة تتألف من المهاجرين من قريش، ومن خمسة بطون من بطون الخزرج وكانت جميعها قد دخلت في الإسلام، وهي، بنو عوف وبنو ساعدة وبنو الحارث وبنو جشم وبنو النجار. ومن بطنين من بطون الأوس، وهما، بنو عمرو بن عوف وبنو النبيت، وكانوا قد دخلوا في الإسلام. أما بقية بطون الأوس، فقد تأخر إسلامها إلى ما بعد معركة الخندق، لذا فقد أشارت إليها الصحيفة تحت

(1) رضوان السيد: الأمة والجماعة والسلطة، ص 54.

(2) فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية، ص 12.

(3) السيد: الأمة والجماعة والسلطة، ص 54.

(4) فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية، ص 12.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اسمها العام وهو "بنو الأوس"[1] كما تحدثت الصحيفة عن اليهود بصفتهم حلفاء لبطون الأوس والخزرج وليس بصفتهم المستقلة، كما سنوضح ذلك لاحقًا.

لقد نصت الصحيفة على بقاء التزامات هذه العشائر على ما كانت عليه سابقًا من حيث تكافل أفراد كل عشيرة في دفع فدية أسراها ودية من يرتكب جناية من أفرادها[2].

3- **الأمة وحقوق الأفراد:** نظمت الصحيفة حقوق الأفراد والتزاماتهم في المجتمع. فنصت على أن جميع أفراد الأمة متساوون في حق منح الجوار، لأن "ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم"[3]، غير أن الصحيفة قيدت هذا الحق بالنسبة للمشركين من أفراد الأمة بقولها: "وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا، ولا يجير دونه على مؤمن"[4]، وذلك لأن مشركي قريش كانوا في حالة حرب مع المسلمين.

وقد أكدت الصحيفة على احترامها لحقوق الولاء، فنصت على "أن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه"[5]، أي من غير موافقته، وذلك على ما يبدو من أجل تجنب الخلافات والحزازات بين أفراد الأمة. كما نصت على "أن لا يأثم أمرؤ بحليفه"[6] "وانه لا يكسب كاسب إلا على نفسه"[7] وذلك لتأكيد المسؤولية الفردية في المجتمع، فلا يحاسب الفرد إلا على أعماله ولا يؤخذ بجريرة غيره كما كان الأمر في ظل القيم القبلية القائمة على العصبية.

وقد تضمنت الصحيفة العديد من النصوص التي تضمن حياة الفرد وأمواله من أن يقع عليها اعتداء وتجعل واجب الدفاع عنه وحمايته من مسؤوليات الأمة بجميع فئاتها. كما نصت على وجوب تعاون الجميع من أجل إيقاع العقاب على الجاني[8]، وبذلك تجاوزت مبدأ العصبية القبلية الذي كان قائما على مناصرة القبيلة لابنائها ظالمين كانوا أو مظلومين.

4. **الأمة والقبائل اليهودية:** تعاملت الصحيفة مع اليهود في المدينة بصفتهم إحدى الجماعات التي تتكون منها الأمة. غير أن الصحيفة لم تشر إليهم بحسب انتماءاتهم

---

(1) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 501 – 502، الشريف: مكة والمدينة، ص 394.

(2) المصدر نفسه، ق 1، ص 501-502.

(3) المصدر نفسه، ق 1، ص 501.

(4) المصدر نفسه، ق 1، ص 502.

(5) المصدر نفسه، ق 1، ص 501.

(6) المصدر نفسه، ق 1، ص 504.

(7) المصدر نفسه، ق 1، ص 504.

(8) المصدر نفسه، ق 1، ص 504.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القبلية الخاصة كبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وإنما أشارت إليهم بصفتهم حلفاء لبطون الخزرج والأوس، فتحدثت عن يهود بني عوف ويهود بني الحارث ويهود بني النجار[1].

لقد حملت هذه المسألة بعض الباحثين إلى رأي مفاده بأن الصحيفة لم تشمل يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وإنما شملت بطونا يهودية صغيرة " كانت قد دخلت في أحلاف مع الأوس أو مع الخزرج"[2]. غير أن أصحاب هذا الرأي لم يقدموا لنا نصًا يؤيد رأيهم، كما لم يخبرونا عن الأسماء الأصلية لهذه البطون اليهودية الصغيرة أو أي شيء عن أوضاعها قبل إعلان الصحيفة أو بعدها.

إن الرجوع إلى المصادر المبكرة يقودنا إلى التوصل إلى أن هؤلاء اليهود الذين أشارت إليهم الصحيفة هم نفس القبائل اليهودية المعروفة في المدينة ولكن الصحيفة أشارت إليهم بصفتهم حلفاء للأوس والخزرج لأنهم كانوا حلفاءهم في الواقع، ومن أجل إبراز سيادة الأنصار في المدينة على اليهود.

لقد أوضح ابن سلام في شرحه للصحيفة أن اليهود الذين نظم كتاب الرسول ﷺ العلاقة معهم حدثان مقدمه إلى المدينة كانوا " ثلاث فرق، بنو قينقاع، والنضير، وقريظة، فأول فرقة غدرت ونقضت الموادعة بنو قينقاع، وكانوا حلفاء عبد الله بن أبي، فأجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة"[3]. كما ذكر الواقدي أن الرسول ﷺ لما قدم المدينة "وادعته يهود كلها، وكتب بينه وبينهم أمانًا، وشرط عليهم شروطًا، فكان فيما شرط ألا يظاهروا عليه عدوا، فلما أصاب رسول الله ﷺ أصحاب بدر، وقدم المدينة بغت يهود وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد"[4]، ثم يتحدث الواقدي عما كان من يهود بني قينقاع وأجلاء الرسول ﷺ لهم عن المدينة بعد أن نقضوا العهد[5].

يتضح من كل ما سبق أن اليهود الذين شملتهم الصحيفة في أحكامها وارتضوا التعامل مع الرسول ﷺ في إطارها هم يهود بني قينقاع ويهود بني النضير ويهود بني قريظة. فما الحقوق والالتزامات التي نصت عليها الصحيفة في ما يتصل بهم.

لقد اعترفت الصحيفة لليهود ومواليهم بحرية ممارسة عقيدتهم فقررت أن "لليهود

---

(1) المصدر نفسه، ق 1، ص 504.

(2) الشريف: مكة والمدينة، ص 394.

(3) ابن سلام: الأموال، ص 207، راجع أيضًا، البلاذري: فتوح البلدان، ص 30.

(4) الواقدي: المغازي، ص 176.

(5) المصدر نفسه، ص 176 - 180.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم"[1]. كما ضمنت لهم الحماية والمساواة في المعاملة، فنصت على أنه "من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم"[2].

وقد قررت الصحيفة مبدأ المسؤولية الفردية بالنسبة لليهود فإذا ارتكب أحدهم جريمة أو عدوانًا على أحد، فإن مسؤولية ذلك العمل تقع على عاتقه وحده "... إلاّ من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ – أي يهلك – إلا نفسه، وأهل بيته"[3].

وفي مقابل الحقوق الآنفة الذكر، فقد أوجبت الصحيفة على اليهود بعض الواجبات فنصت على وجوب معاونة اليهود للمسلمين ضد من يحاربهم: " وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين [4]. ولأن مشركي قبيلة قريش كانوا في حالة حرب مع المسلمين فقد أوجبت الصحيفة على اليهود عدم منح الجوار لقريش ولا من نصرها. كما أن من واجبهم مناصرة المسلمين في محاربة من دهم يثرب [5].

وهكذا نلاحظ أن جميع الواجبات التي ألقيت على عاتق اليهود واجبات تتصل بمساعدة المسلمين في الدفاع عن المدينة وتقديم العون لهم في حالات الحرب، وبخاصة من الناحية المالية، مما يدل على أن المسألة الحربية كانت تشكل الهاجس الأكبر عند المسلمين في هذه المرحلة، فضلا عن أنها تعكس عدم اطمئنان المسلمين من ناحية موقف اليهود. لذا فقد أرادوا تحديد التزاماتهم في هذا المجال بصورة دقيقة.

5. **سلطات الرسول ﷺ في قيادة الأمة:** إن دراسة نصوص الصحيفة تشير إلى أنها جاءت تنفيذا للمبادئ التي قررها القرآن الكريم حول السيادة والسلطة. فقد نصت الصحيفة على أن صاحب السيادة في المدينة هو الله تعالى لأنه صاحب الكلمة الفصل في جميع الأمور. أما الرسول ﷺ فهو صاحب السلطة التنفيذية التي تدير أمور المجتمع وتوجهها على وفق اوامر الله ونواهيه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رابعاً: علنية الدعوة ومقاومة زعماء المشركين لها:

واصلت الدعوة الإسلامية انتشارها بصورة هادئة بين أفراد قبيلة قريش على مدى ثلاث سنوات من تاريخ نزول الوحي على الرسول ﷺ حتى لم تبق عشيرة من العشائر المكية إلا وقد وجد الإسلام بين أفرادها من يؤمن به ويناصره. ومن ثم، فقد غدا الانتقال من مرحلة سرية الدعوة التي تعني الحذر والتكتم واعتماد أسلوب الاتصالات الفردية في الإقناع، إلى مرحلة علنية الدعوة، أمراً ضرورياً للوفاء بمتطلبات انتشار الإسلام. كما أن مبادئ الإسلام ونشاطات المسلمين لم تعد سراً خفياً على أهل مكة بحكم صغر مدينة مكة وقوة الترابط بين سكانها. لذا فقد أمر الله تعالى نبيه أن يصدع بإعلان مبادئ الإسلام "وأن يبادئ الناس بأمره، ويدعو إليه"[1]، فقال له: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[2].

ويبدو أن زعماء المشركين لم يتصدوا لمعارضة الإسلام بعد إعلان الدعوة، وقبل أن تنزل على الرسول ﷺ آيات قرآنية فيها ذم لآلهتهم وتسفيه توجههم لها بالعبادة. "قال ابن إسحاق: فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه – فيما بلغني – حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته"[3].

ويستنتج مما أورده ابن سعد عن الزهري أن موقف المشركين من الرسول ﷺ ودعوته كان يتسم بالبرود وبنوع من السخرية وعدم الرضا، فكان إذا مر عليهم رسول الله ﷺ في مجالسهم "يشيرون إليه، إن غلام بني المطلب ليكلم من السماء"[4]. لذا فربما كانت الآيات القرآنية التي نزلت على الرسول ﷺ بعد أمره بإعلان الدعوة هي بمثابة نقد لموقف المشركين من الرسول ﷺ. قال تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[5].

---

(1) الطبري: تاريخ، ج 2، ص 318.

(2) سورة الحجر، الآية 94.

(3) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 264.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 199.

(5) سورة الحجر، الآية 94 – 99.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهكذا أخذت حدة المواجهة بين الرسول ﷺ وزعماء المشركين تزداد، وبدأ القرآن الكريم يوجه النقد إلى عقيدتهم في عبادة الأصنام، مما جعل زعماء مكة يشعرون بخطر الدعوة على مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بالشرك ورعاية الأصنام، فعزموا على الوقوف في وجه الإسلام والتصدي للمؤمنين بمبادئه. وقد أورد الطبري رواية عن عروة بن الزبير توضح تطور موقف المشركين من الدعوة، جاء فيها: "فإنه - يعني رسول الله ﷺ - لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم، وكادوا يسمعون له، حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال، انكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال لهم، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس، فتركوه الا من حفظه الله منهم، وهم قليل"[1].

وهكذا نلاحظ أن العامل المركزي الذي دفع زعماء المشركين لمقاومة الدعوة الإسلامية هو معارضتها للشرك وعبادة الأصنام. وقد يبدو هذا الأمر مستغرباً للوهلة الأولى، وذلك لأن عقيدة الشرك "لم تكن لها فلسفة قوية تدافع عنها، كما يظهر من محاججة القرآن - للمشركين -، حيث لا يظهر من هذه المحاججة وجود فكرة حية واضحة عندهم، كما لم تذكر آراء واضحة عن ديانتهم أو عن وجود رجال دين يتحمسون في الدفاع عن هذه الديانة"[2].

إن ما تقدم، يتطلب البحث عن الأسباب الحقيقية التي كانت تحرك زعماء المشركين لمقاومة الدعوة الإسلامية بحجة الدفاع عن ديانة الآباء والأجداد.

خامساً: عوامل مقاومة المشركين للدعوة الإسلامية:

إن استقراء الآيات القرآنية التي نزلت في المرحلة المكية وما أوردته المصادر التاريخية توصلنا إلى إرجاع أسباب مقاومة المشركين للدعوة إلى العوامل الآتية:

1- **العامل الاقتصادي**: لقد سبق أن أوضحنا أن أحد العوامل الرئيسة في الازدهار الاقتصادي الذي تحقق في مكة هو وجود البيت الحرام فيها. ونجاح زعماء قريش في استثمار الحرم المكي والأشهر الحرم لتنظيم تجارة القوافل بين اليمن والشام والعراق عبر نظام الإيلاف[3].

وقد أدرك زعماء قريش أن تخلي قبيلة قريش عن الشرك وعبادة الأصنام

---

(1) الطبري: تاريخ، ج 2، ص 328.

(2) العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص 299.

(3) سورة قريش، الآية 1 – 4.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيقوض الأسس التي قام عليها "إيلاف قريش" وسيدخلها في صراع مستمر مع أغلبية القبائل العربية المشركة. وقد عبر المشركون عن تخوفهم من هذه النتيجة كما يذكر ذلك القرآن الكريم بقوله ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ ﴾ (1).

إن هذا الارتباط العميق بين الأوضاع الدينية في مكة ونشاطاتها التجارية هو الذي يوضح لنا لماذا تصدى كبار تجار مكة لمقاومة الدعوة الإسلامية، وبخاصة حينما أعلنت موقفها الصريح من الشرك وعبادة الأصنام(2).

2- العامل الاجتماعي: لقد عد المشركون في مكة التعاليم التي جاء بها الإسلام خطراً على نظامهم الاجتماعي من عدة نواح. فمن ناحية احترام النظام القبلي لتقاليد الآباء والأجداد، دعت دعوة الإسلام إلى التوحيد وترك الشرك، تكفيراً وتسفيها لما كان عليه أباؤهم وأجدادهم ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤ ﴾ (3).

كما عد المشركون خروج المسلمين على إرادة عشائرهم واجتماعهم على عقيدة جديدة، لا تقوم على العرف القبلي وإنما تقوم على فكرة الوحي الإلهي، وتحت قيادة مستقلة عن قيادة الملأ المكي وهي قيادة الرسول ﷺ، تهديدًا لوحدة المجتمع وتفريقًا له. وقد عبر المشركون عن هذا التهديد حينما جاؤوا إلى أبي طالب - عم النبي - ليكلموه في أمره، فقالوا: "خل بيننا وبين ابن أخيك هذا، الذي فارق دينك ودين أبائك وفرق جماعة قومه، وسفه أحلامهم"(4).

وقد عد زعماء قريش مقاييس التفاضل الاجتماعي التي جاء بها الإسلام التي تجعل من التقوى والعمل الصالح أساس التفاضل بين الناس خطراً على نفوذهم ونظامهم الاجتماعي الذي يستند على النسب والثروة. وكان مما يثير المشركين ويقلقهم تلك الحملات القوية التي شنها القرآن الكريم على أسس نظامهم الاجتماعي في العديد من الآيات نحو قوله ﴿ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥

---

(1) سورة القصص، الآية 57.

(2) الطبري: تاريخ، ج 2، ص 328.

(3) سورة الزخرف، الآية 22 – 24.

(4) ابن إسحاق: المغازي، ص 133.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ۝٣٧﴾[1].

3- العامل السياسي: لقد شكل نزول الوحي على الرسول ﷺ بتعاليم السماء، ودعوة القرآن الكريم الناس إلى طاعة الله ورسوله[2]، لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله[3]، تهديدًا قوياً للزعامة القبلية في مكة، لأن من شأن انتشار الإسلام أن يؤدي إلى انتقال القيادة إلى يد الرسول ﷺ بصورة تلقائية. لذا فقد أبدى زعماء المشركون امتعاضهم من نزول الرسالة على رجل ليس من فئة زعماء مكة، ومن ثم فقد راحوا يسخرون من الرسول ﷺ كما يصور ذلك القرآن الكريم ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾[4]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾[5].

وهكذا نلاحظ أن العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قد تشابكت مع بعضها، ووقفت وراء واجهة الدفاع عن ديانة الآباء والأجداد، لتكون سلاحًا بيد رجال الملأ من زعماء مكة لمقاومة الإسلام وإثارة بسطاء الناس عليه.

ويبدو أن المواجهة الدينية بين الرسول ﷺ وبين قومه من مشركي مكة قد سبقتها محاولة قام بها الرسول ﷺ لإنذار قومه وتحذيرهم من مغبة عذاب عظيم يوم القيامة إذا لم يستجيبوا لنداء الدعوة الإسلامية. فقد ذكرت المصادر أنه لما نزلت على الرسول ﷺ آية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ صعد رسول الله ﷺ على الصفا يهتف، فأقبلوا، واجتمعوا، فقالوا: ما لك يا محمد؟ قال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونني؟ قالوا: نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف يا بني زهرة، حتى عدد الأفخاذ من قريش، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلاّ أن تقولوا لا إله إلا الله، قال: يقول أبو

---

(1) سورة سبأ، الآية 35 – 37.

(2) سورة آل عمران، الآية 32، 132.

(3) سورة النساء، الآية 80.

(4) سورة الفرقان، الآية 41.

(5) سورة الزخرف، الآية 31.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهب: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا:؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب، السورة كلها﴾[1].

إن مما تجدر ملاحظته على هذه الرواية أن الرسول ﷺ قد عد جميع بطون قريش بمثابة " عشيرته الأقربين " وليس بني عبد المطلب فقط، لذا فقد توجه إليهم جميعًا بالإنذار. وربما كان سبب ذلك أنه كان لعشيرته علاقات زواج بكافة عشائر مكة، وإنه " لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله وبينهم قرابة "[2].

كما يلاحظ أن الشخص الوحيد الذي تصدى لمعارضة الرسول ﷺ وانتقاده هو عمه أبو لهب، على خلاف ما يقضي به العرف القبلي من تضامن أفراد العشيرة الواحدة فيما بينهم في شتى الظروف والأحوال. بل إن موقف أبي لهب من الرسول ﷺ ليدعو للاستغراب أكثر في ضوء الروابط الأخرى التي كانت تربطهما إذ كانت ابنتا الرسول ﷺ رقية وأم كلثوم مخطوبتين لعتبة وعتيبة ابنا أبي لهب قبل أن يفرق بينهما الإسلام[3].

وقد عزي موقف أبي لهب من الرسول ﷺ إلى طموحه التجاري ورغبته في توثيق صلاته مع أغنياء مكة، وبخاصة أن زوجته أم جميل كانت من أسرة أمية الغنية، وهي أخت لأبي سفيان[4].

سادساً: حماية بني هاشم وبني المطلب للرسول ﷺ:

إن عدم نجاح الرسول ﷺ في الحصول على تأييد زعماء قبيلة قريش للدعوة، لم يدفعه إلى اليأس، بل جعله ينتقل إلى أفراد عشيرته الأقربين من بني عبد المطلب، عسى أن تدفعهم صلة الرحم إلى التضامن معه، وقبول دعوته، فقام رسول الله ﷺ بتنظيم مأدبة، دعا لها بني عبد المطلب فاجتمعوا له، " وهم يومئذ أربعون رجلاً أو ينقصون، فيهم أعمامه أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب..."[5]، وبعد أن تناولوا طعامهم، خاطبهم الرسول ﷺ بقوله: "يا بني عبد المطلب، والله ما أعلم شابًا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة "[6]. إلاّ أن بني عبد المطلب لم يظهروا ما يدل على قبولهم للدعوة أو رفضهم لها، ما عدا أبا لهب الذي أعلن

---

(1) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 200، الطبري: تاريخ، ج 2، ص 319.

(2) العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص 288.

(3) ابن قتيبة: المعارف، ص 82.

(4) وات: محمد في مكة، ص 193 – 194.

(5) ابن إسحاق: المغازي، ص 127، الطبري: تاريخ، ج 2، ص 320.

(6) المصدر نفسه، ص 127، المصدر نفسه، ج 2، ص 321.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معارضته الصريحة للدعوة[1].

غير أن إجماع زعماء قريش على معارضة الدعوة الإسلامية، وتهديدهم للرسول ﷺ بالأذى حمل عمه أبا طالب، وكان في ذلك الوقت رئيس عشيرة بني عبد المطلب، على اتخاذ موقف الدفاع عن الرسول ﷺ وحمايته، على الرغم من أنه كان على دين قومه.

ثم إن أبا طالب دعا بني هاشم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوا إلى ما دعاهم إليه من الدفع عن رسول الله ﷺ، "إلا ما كان من أبي لهب "[2].

وقد أورد ابن سعد رواية تعبر عن المدى الذي يمكن أن يصل إليه استعداد بني هاشم وبني عبد المطلب في الدفاع عن الرسول ﷺ، تقول هذه الرواية إن زعماء قريش تحدثوا في أمر اغتيال الرسول ﷺ، " فلما كان مساء تلك الليلة، فقد رسول الله ﷺ، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه فجمع فتيانًا من بني هاشم وبني المطلب ثم قال: ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم، فيهم ابن الحنظلية، يعني أبا جهل، فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل، فقال الفتيان: نفعل، فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال يا زيد أحسست ابن أخي؟ قال: نعم، كنت معه آنفًا "[3]، فاطمئن أبو طالب إلاّ أنه صمم على ايصال موقفه إلى زعماء مكة، فلما أصبح " غدا على النبي ﷺ فأخذه بيده فوقف به على أندية قريش، ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون، فقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به؟ قالوا: لا، فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان: اكشفوا عما في أيديكم، فكشفوا، فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة، فقال: والله لو قتلتموه ما بقيت منكم أحدًا حتى نتفانى نحن وأنتم، فانكسر القوم، وكان أشدهم انكسارًا أبو جهل "[4].

إن الأمر الذي يدعو للتساؤل هنا هو لما احجم أغلبية بنو هاشم وبنو المطلب عن اعتناق الإسلام على الرغم من حمايتهم ودفاعهم عن شخص الرسول ﷺ.. هل العصبية القبلية التي دفعتهم للدفاع عن الرسول ﷺ هي التي منعتهم من التخلي عن

---

(1) المصدر نفسه، ص 127، المصدر نفسه، ج 2، ص 321.

(2) ابن إسحاق: المغازي، ص 129، الطبري: تاريخ، ج 2، ص 327.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 202 – 203.

(4) المصدر نفسه، ج 1، ص 203.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عقيدة الآباء والأجداد أم أن هنالك عوامل أخرى لم تكشف عنها المصادر التاريخية؟

إن الأفراد الذين دخلوا في الإسلام من بني عبد المطلب في المرحلة المكية هم كل من علي بن أبي طالب، وجعفر بن أبي طالب، ثم تبعهما حمزة بن عبد المطلب، كما اعتنق الإسلام من بني المطلب أبو عبيدة بن الحارث، والطفيل بن الحارث، والحصين بن الحارث ومسطح بن أثاثة، أما بقية أفراد هاتين العشيرتين فقد فضلوا البقاء على الشرك وبضمنهم أبو طالب على الرغم من اختلاف موقفهم من الرسول ﷺ عن موقف بقية بطون قريش[1].

وربما جاز للباحث أن يفترض أن تأخر أغلبية بني هاشم وبني المطلب عن اعتناق الإسلام قد أملته اعتبارات سياسية تتصل بحرصهم على عدم تدهور علاقاتهم ببقية العشائر المكية حتى يتم للإسلام الانتشار في ظل حمايتهم له، وقد عبر ابن كثير عن مثل هذه الفكرة حينما تحدث عن موقف أبي طالب من الإسلام فقال: وكان استمرار أبي طالب على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه، ولاجترأوا عليه، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه، وربك يخلق ما يشاء ويختار"[2].

لقد كان أبرز زعماء المشركين يدركون المصلحة السياسية لبني هاشم وبني عبد المطلب في نزول الوحي على رجل منهم، وكانوا يحسدونهم على ذلك. وقد عبر عن ذلك بصورة صريحة وقوية أبو جهل المخزومي حينما قال: " تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، اطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به ولا نصدقه "[3].

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رابعا: بيعة العقبة الأولى:

تمثل بيعة العقبة الأولى خطوة متقدمة عل طريق التزام أهل المدينة بقضية الإسلام، وعزمهم على تسليم قيادتهم للرسول ﷺ. فبعد أن استجاب الكثير من أهل المدينة للدعوة بعد عودة النفر الستة إليها "فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ"[6]، توجه إلى مكة في موسم الحج من السنة الحادية عشرة للبيعة الموافقة لسنة 621م، اثنا عشر رجلاً من أهل المدينة كان بضمنهم خمسة من النفر الذين قابلوه وآمنوا به في العام السابق، وقد كان اثنان من هؤلاء الرجال ينتميان إلى قبيلة الأوس، في حين أن بقية الرجال من قبيلة الخزرج [7].

ويلاحظ أن مشاركة الأوس إلى جانب الخزرج في التوجه إلى مكة لمبايعة الرسول ﷺ يعد نجاحًا كبيرًا للدعوة لأنها استطاعت بذلك أن تتغلب على عامل

(1) ابن كثير: السيرة النبوية، ج 1، ص 2381.
(2) ابن سعد: الطبقات، ج 3، ص 593، ابن هشام: السيرة: ق 1، ص 431.
(3) ابن سعد: الطبقات، ج 3، ص 345
(4) المصدر نفسه، ج 3، ص 598.
(5) المصدر نفسه، ج 3، ص 525-598.
(6) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 430.
(7) المصدر نفسه، ق 1، ص 431 – 433.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنافسة والخصام بين القبيلتين وتصبح وسيلة لجمع أعداء الأمس وتوحيدهم.

لقد التقى هؤلاء الرجال بالرسول ﷺ في موضع يدعى العقبة، "وهي مكان بين منى ومكة، بينها وبين مكة نحو ميلين"[1]، فبايعوا الرسول ﷺ على الالتزام بمجموعة من المبادئ الأخلاقية التي جاء بها الإسلام. وقد عرفت هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى. كما أطلق عليها فيما بعد وصف بيعة النساء[2]، لأن الرسول ﷺ بايع على نفس هذه المبادئ نساء قريش حين أسلمن بعد فتح مكة [3]. وقد أشار القرآن الكريم في سورة الممتحنة إلى هذه البيعة، والمبادئ التي تضمنتها بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾[4].

إن مما يجدر ذكره في هذا المجال أن المصادر التاريخية قد اكتفت بتزويدنا بمضمون بيعة العقبة الأولى الذي يطابق ما جاء في القرآن الكريم، ومن دون الإشارة إلى ما دار بين الرسول ﷺ وبين أصحاب البيعة من حوار ومناقشات. يروي ابن إسحاق عن عبادة بن الصامت أنه قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على أن لا تشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف - فقال لهم الرسول ﷺ:-فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر[5].

ويلاحظ أنه على الرغم من أن الطابع العام لمضمون هذه البيعة كان ذا طبيعة دينية أخلاقية، إلاّ أنه لم يخل من البعد السياسي، وذلك لأن هذه البيعة نصت على أن يتعهد المبايعون بأن لا يعصوا رسول الله ﷺ في معروف أي أن يلتزموا بطاعته. وبذلك يكونون قد سلموا له بأمر قيادتهم ليس على المستوى الديني والأخلاقي فحسب. وإنما على المستوى السياسي أيضًا.

(1) الشريف: مكة والمدينة 278.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 471.

(3) ابن كثير: السيرة النبوية، ج 1، ص 335، الشريف: مكة والمدينة 279.

(4) سورة الممتحنة، الآية 12.

(5) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 433.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبعد أن غادر رجال بيعة العقبة الأول مكة عائدين إلى مدينتهم، قام الرسول ﷺ بإرسال أحد أصحابه الأوائل مصعب بن عمير إلى المدينة "وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، يفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة مصعب. وكان منزله على أسعد بن زرارة" [1]. وقد ذكر ابن إسحاق أن مصعبا كان يصلي إمامًا بالناس "وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض"[2]، وربما كان ذلك لشدة الخصومة بينهم وحداثة عهدهم بالإسلام.

وقد أشار ابن سعد إلى أن إرسال مصعب إلى المدينة جاء استجابة من الرسول ﷺ لطلب أهل المدينة فقد " كتبت الأوس والخزرج إلى رسول الله ﷺ: ابعث إلينا مقرئا يقرئنا القرآن، فبعث إليهم مصعب بن عمير" [3].

ويستنتج من الروايات التي أوردتها المصادر التاريخية أن مهمة مصعب في المدينة لم تكن مقتصرة على الأمور المشار إليها آنفًا، وإنما تعدتها إلى نشر الإسلام في المدينة وتأمين قاعدة آمنة للدعوة فيها. روى عن عروة بن الزبير أن مصعبا بعد أن نزل في المدينة "جعل يدعو الناس سرًا، فيفشو الإسلام ويكثر أهله "وهم في ذلك مستخفون بدعائهم"[4].

ويبدو أن مصعب بن عمير كان حريصًا على نشر الدعوة بين أفراد قبيلة الأوس بصورة خاصة، وذلك لأن معظم من كان قد أسلم كانوا من الخزرج، لذا فإنه كان يريد كسب الأوس إلى جانب الدعوة من أجل توحيد أهل المدينة تحت رايتها.

غير أن هذا النشاط لم يكن يحظى بتأييد زعماء الأوس لأنهم كانوا لا يزالون على الشرك، لذا فإن مصعبا كان يراعي في نشاطه الحذر والسرية. لقد أوضح ابن إسحاق طبيعة العمل في ظل هذه الظروف عند حديثه عن إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ وهما من زعماء الأوس، فذكر أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر من الأوس، فدخل بستانًا لبني ظفر حيث اجتمعا فيها ببعض المسلمين من الأوس. فلما سمع ابن معاذ وأسيد بن حضير بذلك قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: "لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة

(1) المصدر نفسه، ق 1، ص 234.

(2) المصدر نفسه، ق 1، ص 432 – 435.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 220

(4) ابن الزبير، مغازي رسول الله، ص 123.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدما"[1].

فلما ذهب أسيد بن حضير إليهما، أفلح مصعب في حمله على الإصغاء له ثم لم يلبث أن أقنعه بقبول الدعوة وإعلان إسلامه، الأمر الذي سهل على مصعب عملية الانتقال إلى سعد بن معاذ لدعوته إلى الإسلام. ويلاحظ أن سعد قد استجاب للإسلام بسهولة بمجرد أن جلس إلى مصعب وسمع شيئا من القرآن الكريم، مما يدل على وجود الاستعداد النفسي لديه لقبول الإسلام [2]. جاء في رواية عن ابن الزبير أن سعد بن معاذ قال حين قرأ عليه مصعب القرآن: "ما أسمع إلا ما أعرف"[3].

لقد ترتب على إسلام سعد بن معاذ أن أسلم جميع بني عبد الأشهل بإسلامه ودعائه. ويقال: إن سعدا حين أسلم. رجع إلى قومه، فدعا بني عبد الأشهل إلى الإسلام، وأظهر إسلامه، وقال: من شك فيه من صغير أو كبير أو أنثى أو ذكر فليأتنا بأهدى منه تأخذ به"[4].

وهكذا استطاع مصعب أن ينتقل بالدعوة من أسلوب الحذر والسرية إلى أسلوب العلانية بعد أن أسلم سيدا بني عبد الأشهل، سعد بن معاذ وأسيد بن حضير مع كافة أفراد العشيرة. حتى أن مصعبا انتقل من دار أسعد بن زرارة بعد أن ضاق قومه من بني النجار بنشاطه إلى سعد بن معاذ، "فلم يزل عنده يدعو، ويهدي الله على يديه، حتى قل دار من دور الأنصار إلا أسلم ناس لا محالة وأسلم أشرافهم، وأسلم عمرو بن الجموح، وكسرت أصنامهم، وكان المسلمون أعز أهلها، وصلح أمرهم"[5].

ويبدو أن المسلمين في المدينة قد استطاعوا أن يمارسوا شعائرهم الدينية بحرية حتى أنهم بدأوا بالاجتماع لأداء صلاة الجمعة قبل أن تشرع صلاة الجمعة، أي قبل أن يأمر الرسول ﷺ المسلمين بأدائها. فقد ذكر أن سعد بن زرارة كان أول من جمع الناس لأداء صلاة الجمعة في المدينة، وكان عددهم يومئذ أربعين رجلا[6]. غير أن روايات أخرى تؤكد أن أول من فعل ذلك قبل أن يهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة هو مصعب بن عمير[7]، ولو أمكن الجمع بين الروايتين لجاز لنا القول أنه ربما كان أسعد بن زرارة هو

---

(1) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 436.

(2) المصدر نفسه، ق 1، ص 436 – 437.

(3) ابن الزبير، مغازي رسول الله، ص 124.

(4) المصدر نفسه، ص 124.

(5) المصدر نفسه، ص 124.

(6) ابن هشام: البيرة، ق 1، ص 534، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 239.

(7) ابن سعد: الطبقات، ج 3، ص 118-119.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أول من جمع الناس للصلاة في يوم الجمعة، إلاّ أنه حينما وجد بعض الأوس يتحرجون في الإقتداء به بدافع العصبية ضد الخزرج، طلب من مصعب أن يصلي في الناس وذلك لأن الأوس والخزرج "كره بعضهم أن يؤمه بعض"[1].

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولأهمية كل من مكة والمدينة في انطلاقة العرب الكبرى في عصر الرسالة فسنتحدث بشيء من التفصيل عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية فيها:

1. الحياة الاجتماعية والسياسية في مكة:

تقع مدينة مكة في واد منبسط، غير ذي زرع، تحيط به الجبال من كافة الجوانب في وسط بلاد الحجاز، وقد ساعد على نشأة الحياة في هذه المدينة وجود بعض الآبار فيها وأبرزها بئر زمزم، هذا فضلا عن وجود الكعبة التي يقصدها الناس للحج والعبادة، ووقوعها على طريق القوافل التجارية التي تربط بين اليمن والشام والعراق، مما مكن أهلها من الاشتغال بالتجارة وتقديم الخدمات للقوافل المارة بالمدينة.

ولا تزودنا المصادر التاريخية بمعلومات واضحة عن الحياة في مكة قبل استقرار قبيلة قريش فيها في حدود منتصف القرن الخامس للميلاد، أي قبل ظهور الرسالة الإسلامية بحوالي مائة وخمسين عامًا[2].

تنتسب قبيلة قريش إلى عرب الشمال العدنانيين، وقد نشأ قصي الذي غدا فيما بعد زعيمًا لقريش في مشارف بادية الشام بعيدًا عن قومه بسبب وفاة والده وزواج أمه من أحد رجال بني عذرة. وبعد أن بلغ قصي مبلغ الرجال انتقل إلى مكة وتزوج من ابنة زعيمها حليل بن حبشية الخزاعي. وقد استطاع قصي أن يمهد لنفسه طريق الزعامة من خلال توثيق صلاته مع قومه وغيرهم من العشائر المحيطة بمكة. وبذلك تمكن من تولي زعامة مكة بعد وفاة حليل الخزاعي. وقام بطرد قبيلة خزاعة من مكة حينما عارضت زعامته للمدينة وأحل محلها قومه من قبيلة قريش الذين كانوا يعيشون حياة البداوة في تهامة وفي أطراف مكة وبذلك أصبح غالب سكان مدينة مكة من أبناء قبيلة

---

(1) الشريف: مكة والمدينة، ص 59 – 62.

(2) المرجع نفسه، ص 103.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قريش[1].

وبذلك أصبحت السيادة المطلقة في مدينة مكة لقبيلة قريش، ولم يعد أمام أبناء القبائل الأخرى التي كانت تعيش فيها أو التي تتطلع للعيش فيها سوى التحالف مع قبيلة قريش وقبول سلطتها على المدينة[2].

وقد ذكر أن قصيا قام بتقطيع "مكة رباعًا بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها، ويزعم الناس أن قريشًا هابوا قطع شجر الحرم من منازلهم فقطعها قصي بيده وأعوانه فسمته قريش مجمعًا لما جمع من أمرها"[3].

وقد عرفت البطون القريشية التي أسكنها قصي في بطاح مكة بقريش البطاح، وكانت تضم غالب أبناء قبيلة قريش، وقد اجتمعت بأيديهم الثروة والسلطة وذلك لقيامهم على أمور الحج واشتغالهم بالتجارة. أما بقية البطون القريشية فقد نزلت في أطراف مكة وقد عرفت بقريش الظواهر، وكانت تغلب عليهم حياة الفقر والبداوة وقد سكن معهم أبناء القبائل العربية التي تحالفت مع قريش من كنانة وغيرها فدعوا بالأحابيش[4].

ولا تزودنا المصادر التاريخية بمعلومات حول عدد سكان مكة، وليس بين يدينا من القرائن ما يساعد على تخمين عددهم في زمن قصي بن كلاب. غير أن القوائم التي أوردتها كتب السيرة النبوية عن عدد من الرجال الذين خرجوا منها لقتال الرسول ﷺ في معركة بدر على سبيل المثال تعين على تقدير مجموع سكان مكة في عصر الرسالة، والذي يبدو أنه كان بحدود أربعة آلاف نسمة[5].

لقد عمل قصي حينما تمت له السيادة على مكة أن يمسك بالوظائف ذات الطبيعة السياسية والإدارية والمالية "فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، فحاز شرف مكة كله"[6] كما يقول ابن إسحاق.

وعلى الرغم من أن بعض هذه الوظائف كانت لا تخلو من بعد ديني كالحجابة

---

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ق 1، ص 117 – 118.

(2) لمزيد من التفاصيل، يراجع بحث الدكتور خالد العسلي: دور أجداد الرسول ﷺ في مكة، مجلة تربية البصرة، العدد 6/ 1981.

(3) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 125.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 71، العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص 108.

(5) ابن هشام: السيرة النبوية، ق 1، ص 617، يراجع بحثنا: ثروات أهل مكة في عصر الرسالة، مجلة المؤرخ العربي، عدد 43، سنة 1990، ص 108.

(6) المصدر نفسه، ق 1، ص 125.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فإن الطابع الإداري والمالي كان هو الغالب على ما يبدو. أما الوظائف ذات الطبيعة الدينية البحتة التي كانت متصلة بمناسك الحج كالإجازة بالحج والإفاضة من جمع غداة النحر إلى منى والنسيء للشهور الحرم فقد أبقاها بيد أصحابها القدماء وذلك لأن قصيا كان "يراه دينًا في نفسه لا ينبغي تغييره"[1].

وقد استحدث قصي بعض الوظائف الجديدة في مكة من أجل تنظيم إدارة المدينة وتحسين علاقاتها الخارجية مع أبناء القبائل العربية الذين يفدون إلى مكة في موسم الحج. وقد بقيت هذه الوظائف قائمة حتى مجيء الرسالة الإسلامية. وسنتحدث فيما يأتي بشيء من التفصيل عن هذه الوظائف:

أ. الندوة

لقد كانت التقاليد القبلية عند العرب تقضي بأن على شيخ القبيلة أن يشاور رجال الملأ من قومه في كل ما له صلة بأمورهم العامة. وكان رجال الملأ يتألفون عادة من رؤساء العشائر والأسر وبعض الأفراد الذين تقدمهم سجاياهم الحميدة من أفراد القبيلة.

ويبدو أن قصيا أراد تنظيم المشاورة بطريقة تجعلها قاعدة ثابتة في إدارة شؤون مكة. فقام ببناء دار الندوة، وجعل بابها إلى المسجد الحرام، وربما من أجل منح هذه الدار وما يدور فيها من أمور نوعًا ما من الحرمة والقدسية. فكانت هذه الدار بمثابة دار الحكومة الذي تدار فيه أمور قبيلة قريش كلها "وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم"[2]. كما كان يتم في دار الندوة الإعلان عن بلوغ أبناء القبيلة وبناتها سن الرشد. كذلك فقد كانت الدار المركز الذي تنطلق منه وتعود إليه القوافل التجارية[3].

ولم تزودنا المصادر بمعلومات عن كيفية اجتماع رجال الملأ في دار الندوة ولا الأسلوب الذي تتخذ فيه القرارات، ولكن نظرًا لبساطة المجتمع في ذلك الوقت، يبدو أن الاجتماعات كانت تتم بصورة تلقائية وعند الحاجة، وأن المناقشات في دار الندوة كانت تتم بحرية بعيدًا عن الإجراءات والشكليات. وقد كان الهدف من كل ذلك هو الوصول إلى قرارات تنال موافقة الجميع. ولم تسعفنا المصادر بمعلومات عن الاجراءات التي كان يسلكها رجال الملأ لحل خلافاتهم في حالة عدم حصول الإجماع، وهل تلتزم الأقلية برأي الأغلبية كما هو الأمر في ظل الأنظمة الديمقراطية.

---

(1) المصدر نفسه، ق 1، ص 124، العلي: محاضرات، ص 112.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 125.

(3) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج 1، ص 70.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبدو أن العرب لم يعرفوا نظام التصويت الذي يعطي الأرجحية لأغلبية الأصوات. ويظهر من استقراء طبيعة الممارسات السياسية في مكة في عهد قصي بن كلاب أنه في حالة الاختلاف فإن الرأي الراجح هو الرأي الذي يكون إلى جانبه الرئيس، فقد ذكر ابن إسحاق أن قصيا كان "لا يخالف، ولا يرد عليه شيء صنعه"[1]، وذلك لمكانته الكبيرة بين قومه واحترامهم العظيم له حتى أن "أمره في قومه من قريش في حياته، ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره"[2].

أما بعد قصي، فلم يظهر زعيم في مكة يحظى بمثل هذه المكانة التي حظي بها قصي في قومه. فكان رجال الملأ متناظرين في مكانتهم وحقوقهم. ومن ثم كان من الضروري الحصول على موافقة الجميع على القرارات التي يراد لها الاحترام والتنفيذ. لقد كانت هذه المسألة نقطة ضعف كبيرة في نظام الحكومة المكية، فقد بذل رجال الملأ المكيون جهودًا كبيرة عند اتخاذ القرارات المهمة في المناقشات والمساومات من أجل الوصول إلى قرارات تحظى برضى الجميع. وقد نجح رجل الملأ في هذا المجال بصورة ملحوظة بسبب قدرتهم العالية على المساومة والإقناع التي اكتسبوها من مزاولتهم لمهنة التجارة.

أما في حالة إخفاق رجال الملأ في الوصول إلى قرار جماعي، فقد كانت الأغلبية تحاول فرض رأيها على الأقلية بواسطة الضغط الاجتماعي والاقتصادي، وقد تجلى ذلك بصورة واضحة عندما عمدت سائر البطون القرشية إلى مقاطعة بني هاشم بسبب دفاعهم عن الرسول ﷺ ورفضهم التخلي عن حمايته[3]. كما قد يصل الأمر إلى حد التهديد باستعمال الحرب وسيلة لغرض الرأي على المخالفين كما حصل في حلف الفضول حينما تعاقد أصحاب هذا الحلف "على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى يرد عليه مظلمته"[4].

إن افتقاد حكومة الملأ المكيين لرئيس معترف له بحق السيادة على قومه من بعد قصي بن كلاب، واشتراط الإجماع في القرارات التي يتخذها رجال الملأ من أجل أن يوافق الجميع على الالتزام بها قد أضعف حكومة الملأ وجعلها عاجزة عن اتخاذ

---

(1) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 130.

(2) المصدر نفسه، ق 1، ص 125.

(3) المصدر نفسه، ق 1، ص 350.

(4) المصدر نفسه، ق 1، ص 133 – 134.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القرارات الحاسمة لمواجهة الظروف الصعبة وقد تجلى ذلك بصورة واضحة في عصر الرسالة.

غير أن ما تقدم، لم يفقد حكومة الملأ قدرتها على إدارة مكة بصورة ناجحة أوصلتها إلى حالة من الازدهار الاقتصادي والسياسي في القرن السادس الميلادي.

ب. الرفادة:

إن هدف هذه الوظيفة هو استضافة الحجاج في مكة وتوفير الطعام لهم في موسم الحج ولصعوبة قيام شخص واحد باستضافة كافة الحجاج، فقد دعا قصي بن كلاب قومه أن يساهموا معه في تغطية نفقات ذلك. فوافقوا على ذلك "فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجًا فيدفعونه إليه، فيصنع طعامًا للناس أيام منى"[1].

وقد استمرت قريش على القيام بهذه الوظيفة حتى قيام الإسلام، حيث روى أن القائم عليها في ذلك الوقت كان الحارث بن عامر من بني نوفل[2]. وكان للرفادة أثر كبير في توثيق علاقات قريش وتحالفاتها مع مختلف القبائل العربية وذلك لأن إطعام الطعام في بيئة شبه الجزيرة العربية الفقيرة كان يعد "فضيلة من أكبر الفضائل التي يتمدح بها العرب، وينال صاحبها عن طريقها الاحترام والمنزلة الرفيعة. كما أن المؤاكلة تعد عقد جوار عند العرب، فإذا أطعمت قريش القبائل القادمة إلى مكة في موسم الحج فإنها تنال بذلك احترامًا عامًا ومنزلة سامية في نظر هذه القبائل، كما تعتبر أنها تعاقدت معها برابطة الجوار والأمن نتيجة لهذه المؤاكلة، وبذلك يصبح في إمكان قريش أن تسير آمنة في أراضي هذه القبائل"[3].

جـ. السقاية:

إن الغاية من هذه الوظيفة هي توفير الماء لشرب الحجاج في موسم الحج، حيث يكثر الناس في مكة ويشح الماء. لذا فقد أولى قصي هذه الناحية عنايته "فصنع حياضًا للماء من أدم فيسقى فيها بمكة ومنى وعرفة"[4].

وإن مما له صلة وثيقة بوظيفة السقاية حفر آبار المياه وصيانتها ليتمكن الناس من إشباع حاجاتهم منها. لذا فقد كان نجاح قصي في هذا المجال مأثرة من مآثره الكبيرة، كما أن قيام عبد المطلب بن هاشم بإعادة حفر بئر زمزم بعد أن تولى وظيفة

---

(1) المصدر نفسه، ق 1، ص 130.

(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج 3، ص 314.

(3) الشريف: مكة والمدينة، ص 118 – 119.

(4) ابن سعد، الطبقات، ج 1، ص 73.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السقاية من المآثر العظيمة التي كان يفتخر بها على قومه، وذلك لأن توفير المياه في بيئة صحراوية كان بمثابة توفير وسيلة الحياة الأولى للناس، إذ بدونها لا يمكن للحياة أن تستمر[1].

لقد كانت الوظائف الآنفة الذكر هي أهم الوظائف الحديثة التي استحدثها قصي في مكة ومارسها بنفسه كما كانت هناك وظائف أخرى لا تقل أهمية عنها قائمة في مكة وقد تولى ممارستها بحكم رئاسته على مكة وكانت أبرزها الحجابة واللواء. أما الحجابة فكانت تعد من أشرف الوظائف، وذلك لأن القائم عليها تكون لديه مفاتيح البيت الحرام فلا يدخله أحد إلا بأذن منه. أما اللواء، فكان العلم الذي يحمل في المعارك وتدور حوله الحروب، وهو يرمز عادة لمن تكون بيده قيادة قومه في الحروب والمعارك. وكان قصي هو صاحب اللواء يحمله بنفسه أو يدفعه إلى أحد فرسان القبيلة ليحمله نيابة عنه في أوقات الحروب[2].

لقد جمع قصي بيده جميع هذه الوظائف، ومارس صلاحياتها في إدارة شؤون مكة من غير منازع، وحين بلغ سن الشيخوخة، وأدركته الوفاة، عهد بهذه الوظائف إلى ابنه البكر عبد الدار. وقد احترم أبناء قصي الآخرون، وهم كل من عبد مناف وعبد العزى، وعبد كلال، إرادة أبيهم، فلم ينازعوا أخاهم سلطانه طوال حياته، على الرغم من أنهم كانوا يتقدمون عليه بالشرف كما يذكر الرواة[3]، وربما كان المقصود بذلك الغنى والنفوذ.

غير أن الخلاف لم يلبث أن دب بين أبنائهم بعد وفاة عبد الدار، إذ سعى أبناء عبد مناف، وهم كل من عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل إلى أخذ ما بأيدي بني عبد الدار من الوظائف لأنهم "رأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم"[4].

وقد أدى هذا الموقف إلى انقسام قبيلة قريش إلى كتلتين متنازعتين تتأهب كل واحدة منها لمحاربة الكتلة الأخرى. وقد تألفت الكتلة الأولى من بني عبد مناف وبني أسد وبني زهرة وبني تميم وبني الحارث. وقد سمي أتباع هذه الكتلة بأصحاب حلف

---

(1) العسلي: خالد: الاستسقاء عند العرب قبل الإسلام وبعد، مجلة كلية الإمام الأعظم، بغداد، عدد 4، سنة 1978، ص 551.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 125، الشرف: مكة والمدينة، ص 916، 119 – 120.

(3) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 129.

(4) المصدر نفسه، ق 1، ص 131.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المطيبين، وذلك لأنهم غمسوا أيديهم في إناء مملوء بالطيب عند الكعبة "فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفائهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا على أنفسهم، فسموا بالمطيبين"[1]. وكان زعيم هذا التحالف عبد شمس بن عبد مناف لأنه أكبر أبناء عبد مناف سنا على ما يذكر ابن إسحاق[2].

أما الكتلة الثانية فقد تألفت من بني عبد الدار وبني مخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عدي. فتعاقدوا "فتعاهدوا هم وحلفائهم عند الكعبة حلفًا مؤكدًا، على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا، فسموا الأحلاف"[3]. وكان زعيم هذا التحالف عامر بن هاشم بن عبد الدار[4].

وبينما كان الناس يستعدون للحرب، تداعى الناس إلى الصلح، والتخلي عن الحرب الأهلية بين أبناء القبيلة الواحدة من خلال الاتفاق على حل وسط يقضي بأن تعطي قبيلة قريش لبني مناف "السقاية والرفادة"، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت، ففعلوا ورضي كل واحد من الفريقين بذلك، تحاجز الناس عن الحرب، وثبت قوم مع من تحالفوا، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الله بالإسلام"[5].

ويبدو أن هذا الحادث قد لفت أنظار قبيلة قريش إلى أهمية مراعاة التوازن في توزيع الامتيازات والمناصب الإدارية في مكة بين بطون القبيلة من أجل المحافظة على روح الوفاق والوحدة بين الجميع. لذا فقد استحدثوا عشر وظائف أخرى لا تتعدى أهميتها الجانب المظهري أو الشرفي في المجتمع[6].

د. وندرج في أدناه تعريفًا موجزًا لهذه الوظائف:

1. العمارة: وهي مراعاة الأدب والوقار في البيت الحرام، فلا يتكلم فيه بجهر ولا رفث ولا ترفع فيه الأصوات. ويظهر أن هذه الوظيفة كانت بيد العباس من بني هاشم حينما ظهر الإسلام فضلا عن وظيفة السقاية[7].
2. الحجابة: وهي قفل البيت الحرام وفتحه للزائرين، وكانت هذه الوظيفة حينما جاء الإسلام بيد عثمان بن طلحة من بني عبد الدار، فضلا عن اللواء والسدانة، وربما

---

(1) المصدر نفسه، ق 1، ص 132.

(2) المصدر نفسه، ق 1، ص 131.

(3) المصدر نفسه، ق 1، ص 132.

(4) المصدر نفسه، ق 1، ص 131.

(5) المصدر نفسه، ق 1، ص 132.

(6) الشريف: مكة والمدينة، ص 125.

(7) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج 3، ص 314 – 315، الشريف: مكة والمدينة، ص 120.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الندوة أيضًا.

3. المشورة: وهي أنهم لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحبها، فإن وافقه والاهم عليه وإلا تخير، وكانوا له عونًا. وكانت هذه الوظيفة حينما ظهر الإسلام بيد زيد بن رفعة بن الأسود من بني أسد.
4. الإشناق: وهي جمع الأموال الخاصة بالديات والمغارم والقيام على أدائها. وكانت هذه الوظيفة بيد أبي بكر الصديق من بني تيم حينما ظهر الإسلام.
5. القبة: وهي خيمة تجمع فيها أسلحة الجيش.
6. الأعنة: وهي قيادة خيل قبيلة قريش في الحرب، وكانت هذه الوظيفة فضلا عن الوظيفة السابقة بيد خالد بن الوليد من بني مخزوم حينما ظهرت الدعوة الإسلامية.
7. السفارة: وهي وظيفة مهمتها الاتصال بالقبائل الأخرى في المنافرات والمفاوضات، وكانت هذه الوظيفة حينما ظهر الإسلام بيد عمر بن الخطاب من بني عدي.
8. الأيسار: وهي وظيفة تتصل بالاستقسام بالأزلام التي يضرب بها عند هبل كبير الأصنام في جوف الكعبة. وكانت هذه الوظيفة عند مجيء الإسلام بيد صفوان بن أمية من بني جمح "فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذي تسييره على يديه"(1).
9. الحكومة: وهي وظيفة مهمتها الفصل في المنافرات والخصومات، والأموال المجمدة وهي الأموال المسماة للأصنام. وكانت هذه الوظيفة بيد الحارث بن قيس من بني سهم عند ظهور الإسلام.
10. العقاب: وهي راية قريش وكانت عند ظهور الإسلام لدى أبي سفيان بن حرب من بني عبد شمس. وكان من واجب حامل الراية أن يخرجها "وإذا حميت الحرب، فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه"(2).

يتضح مما تقدم أن إدارة مكة كانت مؤلفة من مجموعة متنوعة من الوظائف التي تتعاون العشائر القرشية على الاضطلاع بعبئها من خلال قيام أفراد تتوافر لديهم المؤهلات وحسن التمثيل لقومهم في تدبير شؤونها استنادًا إلى قواعد الشورى والعرف القبلي السائد بين العرب، وكان يطلق على هؤلاء الأفراد رجال الملأ وهو ما

---

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج 3، ص 314.
(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 314.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقابل في مصطلحاتنا المعاصرة الحكومة التي تتولى إدارة شؤون الدولة.

وثمة مسألة جديرة بالمناقشة، وهي هل توافرت في مدينة مكة الأركان الضرورية لقيام دولة - مدينة - على وفق ما هو مقرر لدى فقهاء القانون الدستوري والعلوم السياسية؟

إن ما تقدم من استعراض أوضاع مكة السياسية يشير إلى أن جميع أركان دولة – المدينة كانت متوافرة في مكة فقد شكلت قبيلة قريش عنصر الشعب المستقر على إقليم محدد هو مدينة مكة. وكان الملأ يمارسون سلطة الإدارة والحكم لهذه المدينة بصورة مستقلة على وفق قواعد العرف القبلي المستقرة في مجتمعهم، ومن غير الخضوع لأية سلطة أجنبية. وبذلك تكون مدينة مكة قد استكملت كل الأركان الضرورية لتكون دولة - مدينة من شعب وإقليم وحكومة ذات سيادة.

وإذا كان من الصحيح القول، أن حكومة الملأ في مكة كانت تعاني من بعض جوانب القصور في تكوينها بسبب غياب السلطة القضائية الملزمة في مجال حسم النزاعات بين الأفراد وضعف قدرة الحكومة في مجال اتخاذ القرارات وتنفيذها بسبب ضرورة اتخاذ القرارات بإجماع الآراء. فإن ذلك لم يمنع هذه الحكومة من العمل وممارسة سلطتها في إدارة مكة بصورة ناجحة، إذ تمكنت من خلال نظام التحكيم المستند إلى العرف والتقاليد من حسم المنازعات بين الأفراد كما نجحت من خلال التمسك بروح الحوار المستند إلى الشعور بالمسؤولية من مواجهة شتى الصعوبات وقيادة المدينة بصورة كفوءة منذ عهد قصي بن كلاب وحتى دخولها في إطار الدولة العربية الإسلامية في عام الفتح سنة 8 هـ أي لمدة تقرب من مائة وخمسين عامًا.

ومن ثم، فقد أصبحت مؤهلة لأن تكون القاعدة التي تنطلق منها التحولات الكبرى في تاريخ شبه الجزيرة العربية والعام في إطار رسالة الإسلام.

2. الحياة الاجتماعية والسياسية في المدينة:

نشأت مدينة يثرب في منطقة زراعية، على طريق التجارة الذي يربط اليمن ببلاد الشام.

ويبدو أن توافر وسائل المعيشة في المدينة من زراعة وتجارة قد ألف عامل جذب لإقامة الناس واستقرارهم في المدينة. فقد ورد ذكر يثرب "في الكتابات المعينية، وكانت من المواضع التي سكنتها جاليات من معين، ثم صارت إلى السبئيين بعد زوال مملكة معين"[1].

---

(1) جود علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج 4، ص 130.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإن أقدم أثر ورد فيه اسم يثرب هو نص الملك نبوئيد ملك بابل الذي سكن تيماء وذكر فيه أنه بلغ هذه المدينة. كما ورد ذكرها في جغرافية بطليموس وعند أسطيفان البيزنطي.

وقد ذكرت يثرب باسم المدينة في بعض الكتابات الآرامية. ويظهر أنها عرفت في البداية بمدينة يثرب ثم اختصرت فقيل لها (مدينتا) بالآرامية، أي المدينة. فلما نزل بها الرسول ﷺ عرفت بمدينة الرسول أو المدينة[1]. وقد ذكر القرآن الكريم كلتا التسميتين مع ميل واضح إلى تبني اسم المدينة لأنه اقترن بالإسلام[2].

ولا تزودنا المصادر بمعلومات دقيقة عن سكان المدينة في تاريخها البعيد لغلبة الطابع الأسطوري عليها. غير أن من المحقق أن المدينة كان يسكنها منذ القرن الخامس الميلادي نفس المجموعات السكانية التي شهدت ظهور الإسلام، وقيام الدولة العربية الإسلامية في المدينة[3]. وكانت تتألف من مجموعتين رئيسيتين، هما القبائل اليهودية، والقبائل العربية.

أما اليهود، فثمة اختلافات واسعة على أصلهم وتاريخ هجرتهم إلى المدينة، فهناك من يرى أنهم عرب تهودوا، بدليل تكلمهم العربية واكتسابهم الكثير من العادات والتقاليد العربية[4]. أما الرأي الآخر، فيرى أصحابه أن يهود المدينة هم من بني إسرائيل الذين أجلاهم الرومان عن فلسطين سنة 70م[5]. ويبدو أن هذا الرأي هو الأقرب للصواب، بدليل أن يهود المدينة كانوا يعتزون بانتسابهم لبني إسرائيل ويحرصون على المحافظة على عزلتهم عن العرب، على الرغم من اكتسابهم للغة العرب وتقاليدهم بحكم إقامتهم الطويلة بينهم[6]. لقد كان يهود المدينة يتألفون من ثلاث قبائل بعضها مرتبط بتحالف مع الأوس وبعضها الآخر مع الخزرج هي بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، فضلا عن بعض المجموعات اليهودية الصغيرة. وقد احترف بنو قينقاع ممارسة الحرف اليدوية والتجارة في سوق المدينة. بينما انصرف أبناء القبيلتين الأخريين إلى

---

(1) المرجع نفسه، ج 4، ص 130.

(2) سورة الأحزاب، الآية 13، سورة المنافقون، الآية 8.

(3) الشريف: مكة والمدينة، ص 292، 314 – 315.

(4) اليعقوبي: تأريخ، بيروت 1960، ج 2، ص 49 – 55.

(5) طنطاوي، د. محمد سيد: بنو إسرائيل في القرآن والسنة، القاهرة 1968، ج 1، ص 73 – 74.

(6) لمزيد من التفصيل يراجع كتابنا: موقف اليهود من العروبة والإسلام في عصر الرسالة، بغداد 1988، ص 16 – 17.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ممارسة الزراعة، مستفيدين من توافر المياه وخصوبة تربة المدينة[1].

وتشير المصادر إلى أن النظام الاجتماعي والسياسي الذي كان يعيش في إطاره يهود المدينة وهو النظام القبلي الذي كان سائدًا بين القبائل العربية وقد تحدثنا عنه في الصفحات السابقة، وربما كان ذلك راجعًا إلى طول مدة إقامتهم بين العرب فضلا عن أن العبرانيين أنفسهم كانوا من شعوب شبه الجزيرة العربية التي تتخذ من النظام القبلي أساسًا لحياتهم الاجتماعية.

لقد ترتب على التزام اليهود في حياتهم الاجتماعية والسياسية بالنظام القبلي أن ظهرت بينهم العصبية القبلية وعادات الأخذ بالثأر، وما ينتج عن ذلك من انقسامات وصراعات تحركها عوامل متنوعة. وقد أدى ذلك إلى ضعفهم، وعدم قدرتهم على رسم سياسة موحدة لهم، على الرغم من انتمائهم إلى ديانة واحدة. وقد أوردت المصادر العربية من الأخبار عن المنافسات والصراعات التي كانت قائمة بينهم[2]. كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في معرض نقده لهم بقوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ ﴾؟[3].

أما القبائل العربية التي كانت تسكن المدينة فتتألف بصورة رئيسية من الأوس والخزرج، ويرجع الإخباريون أصول هاتين القبيلتين إلى قبيلة الأزد من اليمن[4]. ويذكر أن سبب هجرتهم عن أرض اليمن هو انهدام سد مأرب، غير أنهم لا يذكرون تاريخًا محددًا لذلك الحادث الذي أدى إلى هجرة كثير من القبائل اليمنية بسبب السيول الجارفة التي غمرت أراضيهم[5]. ويذهب المستشرق جلا سر إلى أن ذلك قد حصل بحدود سنة 447 – 450 م[6].

---

(1) الشريف: مكة والمدينة، ص 294 – 296.

(2) العلي: الدولة في عهد الرسول، ص 177 – 179.

(3) البقرة، الآية 84 – 85.

(4) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 9، السمهودي: وفاء الوفا، ج 1، ص 173.

(5) المصدر نفسه، ق 1، ص 9، 13، السمهودي: المصدر نفسه، ج 1، ص 166 – 172.

(6) الشريف: مكة والمدينة، ج 1، ص 177 – 178.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويبدو أن الأوس والخزرج قد استقروا في المدينة في حدود هذا التاريخ وربما قبله وذلك لأن أسماءهم ولهجاتهم وثقافتهم عند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة كانت لا تختلف كثيرًا عما لغيرهم في الحجاز وبقية مناطق شبه الجزيرة العربية "الأمر الذي يدل على أن استقرارهم في الحجاز يرجع إلى أزمنة طويلة لدرجة كانت كافية لتركهم آثار الثقافة اليمانية القديمة وتشربهم بثقافة أهل الحجاز"[1].

إن ما تقدم، يشير إلى أن اليهود كانوا أقدم عهدًا في الاستقرار في المدينة من الأوس والخزرج مما أتاح لهم فرصة تملك أفضل الأراضي الزراعية واستثمارها لصالحهم. لهذا فقد اضطر الأوس والخزرج في بداية استقرارهم في المدينة إلى أن يتحالفوا مع اليهود ويعملوا في مزارعهم أجراء، أو أن يتملكوا بعض الأراضي الأقل جودة من الأراضي التي كانت بحوزة اليهود[2].

لقد كان شعور الأوس والخزرج بالغبن والاستغلال من قبل اليهود سببا في حصول المنازعات بينهم والتي انتهت بتغلب الأوس والخزرج على اليهود بعد أن استعانوا بالغساسنة في الشام الذين كانوا يمتون إلهم بصلة النسب الواحد[3] ويبدو أن السبب الرئيس الذي رجح كفة الأوس والخزرج في صراعهم مع اليهود وجعلهم يصبحون أسياد المدينة أن عددهم كان يفوق عدد اليهود في المدينة بكثير. إذ تشير الأرقام الواردة في المصادر أن عدد مقاتلة اليهود من أبناء القبائل اليهودية الثلاث كان بحدود ألفي مقاتل[4]، في حين وصل عدد المقاتلين من الأوس والخزرج عند تجهيز الجيش الذي توجه لفتح مكة حوالي أربعة آلاف مقاتل[5]. أي أن عدد مقاتلة اليهود كان يوازي نصف عدد مقاتلة الأوس والخزرج.

لقد كان حريا بالأوس والخزرج بعد أن تفوقوا على اليهود في المدينة واضطروهم إلى التحالف معهم والدخول في حمايتهم، أن ينشئوا لهم سلطة سياسية تمكنهم من تنظيم أنفسهم وتدير شؤون المدينة كما فعل رجال الملأ في مكة. غير أنهم لم ينجحوا في تحقيق هذا الهدف، وذلك لأن أهل المدينة لم يكونوا ينتمون إلى قبيلة واحدة كما كان الأمر بالنسبة لأهل مكة، بل كانوا يتألفون من خمس قبائل، إثنتان منها

---

(1) العلي: الدولة في عهد الرسول، ص 36.

(2) السمهودي: وفاء الوفا، ج 1، ص 177 – 178.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 178 – 180.

(4) الملاح: موقف اليهود من العروبة والإسلام، ص 11.

(5) الواقدي: المغازي، ج 2، ص 800.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عربية وثلاث يهودية. ولم تكون العلاقات بين هذه القبائل علاقات ود ووئام بسبب تناقض المصالح الاقتصادية وحدة العصبية القبلية. لذا فقد حفلت كتب التاريخ بأخبار الصراعات والحروب التي كانت تنشب بين القبائل اليهودية أو بين بعض القبائل اليهودية والعربية في أحيان أخرى أو بين العرب أنفسهم كما حصل في بعاث قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بخمس سنين[1].

فقد كان الطابع العام الذي يطبع علاقات الفئات المختلفة من أهل المدينة هو فقدان الثقة المتبادلة بينهم. لذا فقد عمد كل بطن أو عشيرة منهم إلى العيش في دائرة منفصلة عن البطن الآخر. وكان زعماء هذه البطون يشيدون لأنفسهم قلاعًا للاستفادة منها في تخزين المؤن والأعتدة الحربية واستخدامها في أوقات الحروب. وكانت هذه الحصون تدعى "الآطام" ومفردها "أطم[2]".

إن هذا الواقع لم يسمح لأهل المدينة بتطوير الحياة في مدينتهم لتغدو كتلة متماسكة من حيث ترابط العمران وتماسك السكان. وبقيت الأحياء السكنية فيها متناثرة ومتباعدة بعضها عن بعض، وتفصل بينها مساحات واسعة من الأراضي والمزارع. ومن ثم فقد كانت المدينة أقرب إلى القرى المتقاربة منها إلى المدينة الموحدة. لذا فقد أطلق على أهل المدينة وصف "أهل القرى"[3].

إن ما تقدم، يفسر أسباب فشل أهل المدينة في تكوين "دولة – مدينة" لهم على غرار ما فعل أهل مكة، على الرغم من أن عددهم كان يفوق عدد أهل مكة كثيراً، وأن أرض مدينتهم كانت أفضل من أرض مكة من حيث الخصوبة وتدفق المياه. إن عجز أهل المدينة على تكوين حكومة ملأ تمثل مجموع القبائل المدنية، وتستطيع الاتفاق على حد أدنى من النظام الذي يضمن سيادة الأمن والاستقرار في المدينة، هو الذي حال دون نشوء دولة – مدينة في يثرب، وجعل سكانها يتطلعون إلى خارجها بحثًا عن القيادة التي تجمعهم وتوحدهم، وهو الأمر الذي سيتحقق على يد الرسول الأمين محمد ﷺ[4].

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حياة الرسول ﷺ

منذ الولادة وحتى البعثة

إن التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي مرت بشبه جزيرة العرب حتى القرن السادس الميلادي، كانت كما أوضحنا في الفصل السابق، تؤذن بقرب بزوغ فجر جديد، يقلب موازين القوى في المنطقة، ويفتح الطريق أمام تحولات كبرى، ليس على مستوى شبه الجزيرة العربية فحسب، بل على مستوى العالم والإنسانية جمعاء.

وكان ممن يلتقي مع سنة الله في كونه، أن يكون المصطفى لقيادة عملية التغيير الكبرى، رجلاً من صميم العرب، ومن أبناء مدينة مكة، حيث بيت الله الحرام الذي يحج إليه الناس من مختلف أنحاء شبه جزيرة العرب، وحيث تقيم قبيلة قريش التي كانت تمارس دوراً قيادياً بين العرب في كافة المجالات، الاقتصادية والسياسية والثقافية.

إن رسالة التغيير التي حملها محمد بن عبد الله ﷺ، هي الإسلام، وهي دعوة دينية سعت لإجراء تغييرات شاملة في أوضاع العرب الاقتصادية والسياسية والثقافية، فكيف تيسر لرسول الله ﷺ أن يضطلع بمثل هذه الأمانة العظيمة ويحقق أهدافها الكبرى خلال حياته الحافلة بالأحداث والتطورات. إن الإجابة عن ذلك تتطلب العودة إلى الجذور الأولى لنشأته وتكوينه ونضجه حتى نزول الوحي عليه. وسنقدم كل ذلك بالحديث عن أجداده الذين أخذ عنهم العديد من الصفات والمؤهلات التي كان لها تاثيرها على مسار حياته وأعماله وبخاصة وأننا قد تحدثنا في الفصل الأول عن بيئته التي نشأ فيها وحقق أعماله الكبرى في إطارها.

أولاً: نسبه وأجداده:

تتفق المصادر التاريخية على عروبة محمد ﷺ وانتسابه إلى قبيلة قريش، وهي تقدم لنا سلسلة نسب متصلة الحلقات في هذا المجال تبدأ بمحمد لتصل إلى عدنان، وعلى النحو الآتي: "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان"[1]. إن هذه السلسلة من النسب هي ما يتفق على ذكرها النسابون العرب، أما ما بعد ذلك وحتى تصل النسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام)، فهي من الأمور المختلف على تفصيلها كثيرًا لبعد عهدها عن عصر الرسالة[2].

وقد لوحظ أن نسب رسول الله ﷺ يلتقي عند (فهر) بجميع بطون قريش لأن من "كان من ولد فهر فهو قرشي" كما يلتقي نسبه عند (عدنان) بنسب جميع القبائل العربية الشمالية التي تدعى بالعدنانية[3].

وكان من أجداد محمد بن عبد الله الذين اضطلعوا بدور كبير في حياة مكة: قصي بن كلاب وهاشم بن عبد مناف، وقد أوضحنا دور كل منهما عند الحديث عن أوضاع مكة السياسية والاقتصادية في الفصل الأول: أما جده المباشر، وهو عبد المطلب بن هاشم، فإن من الضروري إلقاء بعض الأضواء على حياته ليس بسبب هذه الصفة فقط وإنما لأنه قام من محمد ﷺ مقام الأب والمربي بسبب وفاة الوالد عبد الله.

نشأ عبد المطلب في مدينة يثرب، وذلك لأن أمه سلمى بنت عمرو من بني النجار، كانت من أهل يثرب، وقد تزوجها هاشم عند أهلها ثم سافر بتجارته إلى غزة وهناك توفي ودفن، وقد أشارت المصادر إلاّ أنه كان لهاشم أولاد آخرون إلاّ أنهم جميعًا لم يتركوا لهم عقبا. لذا فإنه "ليس في الأرض هاشمي الا من ولد عبد المطلب بن هاشم"[4].

وحين بلغ عبد المطلب سن الفتوة والشباب، قدم عمه المطلب بن عبد مناف إلى يثرب لأخذه إلى مكة، وحين عارضت أمه ذلك أقنعها بقوله: "ابن أخي، قد بلغ وهو غريب في غير موقعه، ونحن أهل بيت شرف قومنا، والمقام ببلده خير له من المقام هنا، وهو ابنك حيث كان"[5].

ويذكر أن اسم عبد المطلب كان عامرا[6]، وقد أطلق عليه أيضًا اسم شيبة، لأنه

---

(1) ابن إسحاق: المغازي والسير، ص 1، ابن قتيبة: المعارف، ص 70، ابن حزم: جوامع السيرة، ص2.

(2) المصادر نفسها.

(3) ابن حزم: جوامع السيرة، ص 3.

(4) ابن قتيبة: المعارف، ص 43.

(5) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج 1، ص 82.

(6) ابن قتيبة: المعارف، ص 43.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولد وفي رأسه شيبة[1]. كما عرف باسم عبد المطلب بعد مجيئه إلى مكة لأنه حين دخلها خلف عمه المطلب بن عبد مناف قالوا: "هذا عبد المطلب فلزمه الاسم وغلب عليه"[2].

لقد كان منصب الرفادة والسقاية في مكة بيد المطلب الذي شغله بعد وفاة أخيه هاشم، فلما توفي المطلب "ولي عبد المطلب بن هاشم الرفادة والسقاية، فلم يزل ذلك بيده يطعم الحاج ويسقيهم في حياض من أدم بمكة، فلما سقي زمزم ترك السقي في الحياض بمكة وسقاهم من زمزم حين حفرها وكان يحمل الماء من زمزم إلى عرفة فيسقيهم"[3].

وقد ذكر ابن إسحاق أن قريشًا نازعت عبد المطلب حين حفر زمزم، وقالوا له "إنها بئر أبيها إسماعيل، وإن لنا فيها حقًا، فأشركنا معك"[4]. غير أن عبد المطلب رفض الاستجابة لطلب قومه، مما اضطرهم على الاتفاق على عرض هذه المنازعة على كاهنة بني سعد بن هذيم بأطراف الشام لتحكم بينهم[5].

ويبدو أن السقاية في مكة وكذلك الرفادة كانت تدر دخلا على من يتولى إدارتها[6]، لذا فقد سعت بعض الأطراف في مكة إلى مشاركة عبد المطلب في إدارة بئر زمزم. كما أن ذلك يدل على أن مركز عبد المطلب في هذه المرحلة لم يكن قويا في مكة ربما بسبب حداثة إقامته فيها، لذا فقد ذكر ابن إسحاق وغيره أن عبد المطلب "نذر حين لقي من قريش عند حفر زمزم ما لقي: لئن ولد له عشر نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم لله عز وجل عند الكعبة. لما توافى بنوه عشرة: الحارث والزبير وحجل، والمقوم، وأبو لهب، والعباس، وحمزة، وأبو غالب، وعبد الله، وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره التي نذر ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوا له"[7]. وقد ذكر ابن إسحاق أن عبد المطلب تخلص من هذا المأزق الشديد الذي يقضي بأن يضحي بأحد أبنائه وكانت القرعة قد وقعت على عبد الله، بأن قدم قربانًا مائة

---

(1) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 79.

(2) ابن قتيبة: المعارف، ص 43، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 83.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 83.

(4) ابن إسحاق: المغازي، ص 3.

(5) المصدر نفسه، ص 3.

(6) العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص 98-99.

(7) ابن إسحاق: المغازي، ص 10.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثانيًا: ولادة محمد بن عبد الله ﷺ:

تفاوتت المصادر التاريخية تفاوتًا كبيرًا في مسألة تحديد تاريخ ولادة الرسول ﷺ وعمره حين وفاته. ويصل هذا الخلاف في تقدير عمره إلى خمس سنوات. ففي الوقت الذي تذكر فيه بعض الروايات أنه توفي وعمره ستون سنة تذهب روايات أخرى إلى أن عمره كان ثلاثًا وستين، وفي حين تؤكد روايات أخرى أن عمره كان خمسًا وستين سنة(4).

إن مما يساعد الباحث على تحديد تاريخ ولادة الرسول ﷺ هو الاستعانة بالتواريخ التي تتفق عليها معظم المصادر المعتمدة. ومن جملة هذه التواريخ، تاريخ وفاة الرسول ﷺ، إذ تجمع المصادر إلى أنه توفي في السنة الحادية عشر للهجرة، وهي توافق سنة 632(5)م. كما تتفق معظم المصادر على أن عمره حين نزل عليه الوحي برسالة الإسلام كان أربعين سنة(6)، وإنه بقي يدعو إلى الله في مكة ثلاثة عشر سنة قبل أن يهاجر إلى المدينة(7).

وبذلك يمكن للباحث أن يقرر أن الرسول ﷺ قد نبئ في سنة 609م، وإنه قد ولد في سنة 596م، وأن عمره حين وفاته كان ثلاثًا وستين سنة. أما الروايات التي تذهب إلى أن عمره حين نزل عليه الوحي كان ثلاثًا وأربعين سنة(8)، فإنها تبدو لنا روايات

---

(1) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 99.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 99.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص100.

(4) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 215-216، المسعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 306-308.

(5) الطبري: تاريخ، ج 3، ص217، العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص232.

(6) ابن إسحاق: المغازي، ص217، العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص 232. ابن سعد: الطبقات، ج1، ص 194 الطبري: تارخ، ج 2، ص 290_291، المسعودي، مروج الذهب، مج2 ص 296، ابن حزم: جوامع السيرة، ص5.

(7) الطبري: تاريخ، ق 2، ص 292، ابن حزم: جوامع السيرة، ص5.

(8) الطبري: تاريخه، ج 2، ص 292.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضعيفة وذلك لأنها جاءت على خلاف ما اتفقت عليه معظم الروايات، بالإضافة إلى أن القرآن الكريم كان يعد سن الأربعين هي سن الاكتمال والنضج. وقد أشار إلى ذلك بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ [1].

أما عن الظروف التي ولد فيها الرسول ﷺ، فإن معظم الروايات تذكر أن والده توفي وهو لا يزال في بطن أمه، أي أنه ولد يتيم الأب[2]، غير أن المصادر تورد روايات أخرى مفادها أن الرسول ولد في حياة والده، وإن والده حين توفي كان عمره وفقًا لإحدى الروايات ثمانية وعشرين شهرا[3]، بينما تذهب رواية أخرى إلى أن الرسول ﷺ حين وفاة والده لم يكن قد أكمل ثلاث سنوات من العمر[4]، في الوقت الذي تذهب رواية أخرى إلى أن والده قد توفي وهو في السنة الثانية من مولده[5]، وتذهب رواية أخرى إلى أن والده توفي وعمره سبعة أشهر[6]، وفي حين تقرر رواية أخرى أن والده توفي بعد مولده بشهر واحد[7].

إن التضارب الشديد بين الروايات التي تتحدث عن عمر الرسول ﷺ حين وفاة والده تجعلها جميعًا غير جديرة بالثقة، فضلا عن مناقضتها لما رجحه معظم المؤرخين من أن رسول الله ﷺ ولد بعد وفاة والده عبد الله، وإن مما يقوي هذا الرأي ما أوردته كتب السيرة من تردد المرضعات اللاتي قدمن من البادية في أخذه من والدته حين سمعن بأنه يتيم[8]. وقد أشار القرآن الكريم إلى حالة اليتم التي كان عليها الرسول ﷺ بقوله: ﴿ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ ﴾ [9].

لقد ولد الرسول ﷺ في مكة في دار والده عبد الله، وهو يقع في موضع يدعى شعب بني هاشم، "كان لهاشم بن عبد مناف دون الناس، قالوا: وكان عبد المطلب قد

---

(1) سورة الأحقاف، الآية 15، العلي: محاضرات، ص 239.

(2) ابن إسحاق: المغازي، ص 22. ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 158، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 100.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 100.

(4) ابن حزم: جوامع السيرة، ص 5.

(5) المسعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 296.

(6) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 100.

(7) المسعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 296.

(8) ابن إسحاق: المغازي، ص 26.

(9) سورة الضحى: الآية 6.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قسم حقه بين ولده ودفع إليهم ذلك في حياته...... ثم صار للنبي ﷺ حق أبيه[1].

بعد ولادة الرسول ﷺ، أرسلت آمنة بنت وهب من يخبر جده عبد المطلب أن "قد ولد لك الليلة غلام، فانظر إليه... فلما جاءها أخبرته خبره وحدثته بما رأت حين حملت به"[2]، وطلبت منه أن يسميه محمدًا. وقد ذكر أنه قيل لعبد المطلب حين سمى حفيده محمدًا "كيف سميت باسم ليس لأحد من آبائك وقومك فقال: إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم"[3].

وقد أشير إلى أنه لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة هم محمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن أمية ومحمد بن حمران بن ربيعة[4]، غير أن أحد الباحثين قد أحصى أسماء أكثر من سبعة أشخاص قد عرفوا بهذا الاسم من قبل الرسول ﷺ، كما ورد هذا الاسم في نقوش عربية قديمة بصيغ مختلفة، مثل محمد وحمد ويحمد[5].

ثالثًا: حياة محمد ﷺ مع مرضعته:

مكث محمد ﷺ مع أمه فترة قصيرة من الزمن بعد ولادته ريثما يجدون له مرضعة تتولى أمر إرضاعه، وقد ذكر أن أول من أرضعته مولاة لأبي لهب تدعى ثويبة (وأرضعت معه أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي بلبن ابنها مسروح وأرضعت معه عمه حمزة ابن عبد المطلب)[6]، فكان هؤلاء الثلاثة أخوة لرسول الله في الرضاعة.

وإن مما يدعو للتساؤل في هذا المجال عدم إشارة المصادر التاريخية إلى قيام "والدة الرسول ﷺ بإرضاعه، وإناطة هذه المهمة بغيرها من النساء حتى قبل أن تجد له مرضعة تتولى أمر حضانته وإرضاعه. فهل كانت أمه آمنة بنت وهب تعاني من بعض المتاعب الصحية التي تمنعها من إرضاعه، وبخاصة وأنها قد توفيت بعد ذلك بسنوات قليلة كما سنوضح ذلك لاحقا".

يقول ابن إسحاق أن عبد المطلب أخذ يلتمس المراضع لرسول الله ﷺ بعد

---

(1) الأزرقي: أخبار مكة، ج 2، ص 233.

(2) ابن إسحاق: المغازي، ص 22.

(3) السهيلي: الروض الآنف، ج 1، ص 105.

(4) المصدر نفسه، ج 1، ص 105-106.

(5) جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام، ص 76-77، راجع أيضا: ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج 1، ص 46.

(6) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ج 1، ص 36، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 108.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولادته[1]. ويروي أنه قدم إلى مكة بعض المرضعات من بادية بني سعد بن بكر بن هوزان، يلتمسن الحصول على أطفال لإرضاعهم، وكان عددهم حسب إحدى الروايات عشر نسوة[2]. فما من امرأة منهن الا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ - كما تقول حليمة السعدية - فإذا قيل لها: (إنه يتيم تركناه، وقلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أبي الوليد، فأما أمه فما عسى أن تصنع إلينا؟ فوالله ما بقي من صواحبي امرأة الا أخذت رضيعًا غيري، فلما لم أجد غيره، قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى، والله اني أكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه......)[3].

إن النص الآنف الذكر يشير إلى أن إرسال الأطفال مع المرضعات إلى البادية كان عادة قرشية تمارسها الأسر الموسرة في مكة، وقد ذكر أن من أسباب هذه العادة حرص أهل مكة على أن ينشأ أطفالهم في جو صحي بعيد عن الوباء[4]، ومن أجل أن يتعلموا فصاحة اللسان وخشونة العيش، لقد كانت مكة بحكم مركزها الديني التجاري مدينة يلتقي فيها أناس من قبائل وأجناس مختلفة مما يؤثر على لهجات وعادات أهلها[5]، فضلا عن احتمال نقل عدوى الأوبئة إلى أبنائها، فلا غرابة أن تحرص بعض العوائل الموسرة على إرسال أطفالها إلى البادية. وربما كان لاصول قبيلة قريش البدوية علاقة بهذه الممارسة حيث بقيت المثل العليا مرتبطة بأجواء البادية على الرغم من إقامتهم الطويلة نسبياً في مكة. وقد روي عن الرسول ﷺ مفاخرًا في نشأته في بني سعد وتعلمه لسانهم قوله لأصحابه: "أنا أعربكم، أنا قرشي، وأسترضعت في بني سعد بن بكر"[6].

ولا تتفق المصادر في تحديد المدة التي مكثها رسول الله ﷺ في بادية بني سعد لدى مرضعته حليمة السعدية. فقد ذكر ابن إسحاق أن محمدًا ﷺ قد بقى في كنف حليمة سنتين، فكان "يشب شبابًا لا يشبه الغلمان فوالله ما بلغ سنتين حتى كان غلامًا جفرًا - أي الغليظ الشديد - "[7]، فقدمت به على أمه. فكانت هذه المرحلة الأولى من إقامته لدى حليمة، وهي في حقيقتها فترة حضانة ورضاعة.ثم إن حليمة أقنعت أمه

(1) المغازي، ص 25.
(2) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 110.
(3) ابن إسحاق: المغازي، ص 26.
(4) المصدر نفسه، ص 27، السهيلي: الروض الآنف، ج 1، ص 109.
(5) العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص 233.
(6) ابن هشام: السيرة، ص 167.
(7) ابن إسحاق: المغازي، ص 27.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بتمديد إقامته عندها سنة أخرى لأنها "تخشى عليه أوباء مكة"[1]، فوافقت على ذلك غير أن حليمة لم تلبث سوى شهرين أو ثلاثة، حتى أعادته إلى أمه، لأنها خشيت عليه "الإتلاف والأحداث"[2] على حد تعبيرها، وبذلك تكون فترة إقامة الرسول ﷺ في بادية بني سعد أكثر من سنتين بقليل حسب رواية ابن إسحاق.

وقد ذكرت بعض الروايات أن إقامة الرسول ﷺ لدى حليمة السعدية قد امتدت إلى أربع سنوات[3]، في حين ذهبت روايات أخرى إلى أن الرسول ﷺ قد بقي عند مرضعته خمس سنوات[4].

وعلى الرغم من أنه لا توجد بين أيدينا قرائن قاطعة لترجيح رواية دون أخرى، إلاّ أن ما وصلنا عن اعتزاز الرسول ﷺ بأنه لسانه - أي لهجته - في الحديث "لسان بني سعد بن بكر"[5]، وأنه كان يرعى الغنم في بني سعد مع أخيه في الرضاعة[6]، يرجح أن إقامته كانت بحدود خمس سنوات.

ويبدو أن فترة إقامة الرسول ﷺ في بني سعد قد تركت أثرًا عميقًا في نفسه ﷺ، وجعلته يشعر تجاه مرضعته حليمة وأبنائها وكأنه واحد منهم، وكان ذلك أمرًا طبيعيا فقد امتدت معايشته لحليمة وصلته بها أكثر من أمه، أما أخوته في الرضاعة من أبنائها وهم كل من عبد الله وأنيسة وحذافة (المعروفة بشيماء)[7]، فقد كانت صلته بهم أعمق من مجرد صلة أخوة بالرضاعة لطول إقامته بينهم ولأنه كان وحيدًا، فلم يكن له إخوة وأخوات من أمه وأبيه.

وقد كان الرسول ﷺ بارًا بحليمة بعد بلوغه وزواجه، فقد ذكر أن حليمة قدمت على رسول الله ﷺ بعد زواجه "فتشكت جدب البلاد وهلاك الماشية، فكلم الرسول ﷺ خديجة فيها فأعطتها أربعين شاة وبعيرًا موضعًا للضعينة وانصرفت إلى أهلها"[8].

وحين قدمت عليه الشيماء ضمن وفد هوزان، رحب بها بحرارة "وعمد إلى ردائه

---

(1) المصدر نفسه، ص 27.

(2) المصدر نفسه، ص 27.

(3) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج 1، ص 52.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 112، ابن قتيبة: المعارف، ص 79، السعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 297.

(5) ابن سعدك الطبقات، ج 1، ص 113.

(6) ابن هشام: السرة، ق 1، ص 167، السهيلي: الروض الانف، ج 1، ص 112.

(7) ابن إسحاق: المغازي، ص 25.

(8) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 113_114.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فبسطه لها فقعدت عليه"[1]، كما أحسن استقبال وفد هوازن الذين جاؤوه بعد هزيمتهم في معركة حنين طالبين أن يرد عليهم سبيهم، وأموالهم، وكان مما قال عمه من الرضاعة أبو ثروان: "يا رسول الله إنما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك، وقد حضناك في حجورنا، وأرضعناك بثدينا، ولقد رأيتك مرضعًا فما رأيت مرضعًا خيرًا منك ورأيتك شابًا فما رأيت شابًا خيرًا منك، وقد تكاملت فيك خلال الخير، ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك، فآمنن علينا منّ الله عليك"[2]. وقد تأثر الرسول ﷺ بهذا الكلام فوافق أن يرد عليهم ما كان له ولبني عبد المطلب وحث بقية أصحابه على الاقتداء به في مساعدتهم فاستجابوا له[3].

رابعًا: حياة محمد ﷺ مع أمه:

بعد عودة محمد ﷺ من عند مرضعته حليمة السعدية إلى أهله في مكة، عاش إلى جوار والدته مدة تقرب من سنة حسب أغلب الروايات[4]، ثم إن أمه عزمت على السفر إلى المدينة بصحبة ابنها وجاريتها أم أيمن، ربما بهدف زيارة قبر زوجها عبد الله هناك، وتعريف الرسول بأخوال أبيه ومشاهدة قبره.

وحين وصلت إلى المدينة نزلت في دار النابغة من بني النجار فأقامت به عندهم شهرًا، وقد كان للرسول ﷺ ذكريات حية في نفسه من أثر هذه الزيارة. فكان يذكر أمور كانت في مقامه ذلك بعد هجرته إلى المدينة، فقد "نظر إلى أطم بني عدي بن النجار فعرفه وقال: كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالي نطير طائرًا كان يقع عليه، ونظر إلى الدار فقال ههنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله بن عبد المطلب، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار"[5].

وبعد انقضاء زيارة آمنة بنت وهب للمدينة توجهت عائدة إلى مكة بصحبة ابنها وجاريتها، إلاّ أنها مرضت في الطريق مرضًا شديدًا أدى إلى وفاتها في موضع بين مكة والمدينة يدعى الأبواء. وقد دفنت في ذلك الموضع[6].

وقد عادت أم أيمن بالرسول ﷺ إلى مكة وقد أصبح يتيم الأم والأب وعمره لم

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص 114، ابن القيم: زاد المعاد، ج 1، ص 37.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 114.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 115.

(4) المصدر نفسه، ج 1، ص 116، ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 168.

(5) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 116.

(6) المصدر نفسه، ج 1، ص 116، ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 168.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتجاوز السادسة على أرجح الأقوال: وتشير المصادر التاريخية إلى أن ذكرى هذا الحادث الأليم قد بقيت حية في نفس الرسول ﷺ، حتى أنه حين مرّ بقبر أمه في منطقة الأبواء في عمرة الحديبية في السنة السادسة للهجرة وقف عليه "فأصلحه وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ، حتى أنه حين مر بقبر أمه في منطقة الابواء في عمرة الحديبية في السنة السادسة للهجرة وقف عليه "فأصلحه وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ فقيل له، فقال: أدركتني رحمتها فبكيت"[1].

خامسا: حياة محمد ﷺ مع جدّه:

انتقلت العناية بمحمد ﷺ بعد وفاة والدته إلى جده عبد المطلب. وكانت تعينه في هذا المجال مولاته وحاضنته أم أيمن. وقد حرص عبد المطلب أن يعوض الرسول ﷺ عن فقدانه حنان أمه فضاعف في اهتمامه به وحرص عليه، وكان من مظاهر هذا الاهتمام ما ذكره ابن إسحاق من أنه (كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب، إذا رأى ذلك منهم: دعو بني، فوالله أن له لشأناً، ثم يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده)[2].

كما ذكر أن عبد المطلب كان يوصي أم أيمن بألا تغفل عن مراقبة الرسول والاهتمام به، حتى أنه قال لها مرة "يا بركة لا تغفلي عن ابني، فإني وجدته مع غلمان قريبا من السدرة"[3]. "وكان عبد الملك لا يأكل طعامًا إلا قال: علي يا بني، فيؤتى به إليه"[4].

وحين حضرت الوفاة عبد المطلب، وكان قد غدا شيخًا كبيرًا قدر الإخباريون سنه بما يزيد على اثنين وثمانين عامًا[5]، وكان قد فقد بصره[6]، أوصى ابنه أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته[7]، ربما لأنه كان وعبد الله والد الرسول ﷺ أخوين من أم

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص 116-117.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 168.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 118.

(4) المصدر نفسه، ج 1، ص 118.

(5) المصدر نفسه، ج 1، ص 119.

(6) الأزرقي: أخبار مكة، ج 2، ص 223.

(7) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 119.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واحدة[1].

لقد كان من الطبيعي أن يتأثر الرسول ﷺ لوفاة جده كثيرًا بعد أن ذاق في كنفه كل رعاية وحنان. وقد وصفت أم أيمن حالة رسول الله ﷺ عند وفاة جده بقولها: "رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب"[2]. وقد سئل رسول الله ﷺ بعد ذلك إن كان يتذكر موت عبد المطلب فقال: "نعم أنا يومئذ ابن ثمان سنين"[3].

سادسا: حياة محمد ﷺ مع عمّه:

انتقل محمد ﷺ بعد وفاة جده إلى دار عمه أبي طالب وكان اسمه عبد مناف، للعيش في كنفه مع بقية أفراد عائلته. وقد تولى أبو طالب كفالة الرسول ﷺ على الرغم من أنه لم يكن أكبر أخوته، فقد كان الحارث أكبر منه سنا، ولم يكن أكثر إخوانه مالاً، فقد كان العباس أغنى منه كثيرا[4]. بل إن المصادر التاريخية تكاد تجمع على أن أبا طالب كان لا مال له، إلاّ أنه كان يحب ابن أخيه محمدًا ﷺ "حبا شديدًا لا يحبه ولده"[5]. لذا فقد رويت عنه العديد من صور الرعاية والعناية التي تعبّر عن هذا الحب. فقد روى أنه كان "لا ينام إلا إلى جنبه، فيخرج معه..... وكان يخصه بالطعام"[6].

وقد روي أن أبا طالب كان يتجهز للسفر إلى الشام في إحدى القوافل التجارية لأهل مكة، فتعلق به رسول الله ﷺ وتوسل إليه أن يأخذه معه بقوله: "يا عم إلى من تكلني؟ لا أب لي ولا أم، فرق له أبو طالب، وقال: والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني ولا أفارقه أبدًا"[7].

وقد اختلفت الروايات في تقدير عمر الرسول ﷺ حينما صحب عمه في هذه الرحلة، فقد ذكر الطبراني أن عمره كان تسعة سنوات[8]، بينما أورد ابن قتيبة وابن سعد رواية تشير إلى أن عمره كان اثنتي عشر سنة[9]، وقد أتاحت هذه الرحلة الطويلة للرسول ﷺ على الرغم من صغر سنه أن يشاهد العديد من القرى والمدن في خارج

---

(1) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 179.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 119.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 119.

(4) ابن قتيبة: المعارف، ص 71-76، جواد علي: تاريخ العرب في الأسلوب، ص 102.

(5) ابن سعد الطبقات: ج 1، ص 119.

(6) المصدر نفسه، ج 1، ص 119.

(7) ابن إسحاق: المغازي: ص 53.

(8) الطبري: تاريخ، ج 2، ص 278.

(9) ابن قتيبة: المعارف، ص 88، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 121.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلده، فرأى "بصرى ومدين ووادي القرى ومواقع أخرى جميلة ذات زرع وضرع وعيون وآبار لا تقاس بها مكة، ولا أي موضع آخر في الحجاز وشاهد رهبانًا ونصارى يقيمون في تلك الأماكن"(1). ولا بد أن تلك المشاهد كان لها أثر في توسيع دائرة تفكيره واهتمامه ضمن حدود معينة.

لقد أوردت العديد من المصادر التاريخية أن الرسول ﷺ كان يعمل في صغره وصباه في رعي الغنم، فقد رعى الغنم في صغره مع أخيه في الرضاعة عندما كان عند حليمة السعدية، كما أوضحنا ذلك، كما رعى الغنم في مكة بعد عودته إليها. فقد روي أن الرسول ﷺ قال يوما لأصحابه لقد رعى الغنم لأهل مكة بالقراريط(2). وبدا أنه قد مارس هذه المهنة في مكة بعد انتقاله إلى بيت عمه أبي طالب بهدف مساعدة عمه اقتصاديا. فقد أورد ابن إسحاق رواية في هذا المجال تؤكد أنه كان في سن الفتوة حينما كان يمارس مهنة رعي الغنم. فقد ذكر ابن إسحاق رواية في هذا المجال تؤكد أنه كان في سن الفتوة حينما كان يمارس مهنة رعي الغنم. فقد ذكر ابن إسحاق أن الرسول ﷺ قال: "ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة، ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبي: تبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان؟ فقال: علي، قال: فدخلت حتى أذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة. فجلست أنظر، وضرب الله عز وجل على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس..."(3).

إن النص المتقدم يشير بالإضافة إلى ما ذكرنا أن الرسول ﷺ كان فتى جادًا لا تستهويه مظاهر اللهو والطرب التي تستهوي عامة الشباب من قومه. وربما كان ذلك أمرًا طبيعيا لشخص نشأ في ظروف صعبة كتلك الظروف التي عاش في ظلها الرسول ﷺ منذ ولادته وحتى انتقاله إلى بيت عمه أبي طالب.

وإن مما يؤكد هذا البعد في شخصية الرسول ﷺ مشاركته في حرب الفجار، وكانت هذه الحرب قد وقعت بين قبيلة كنانة وقبيلة قيس عيلان من هوازن. وقد دخلت قريش هذه الحرب لمناصرة حليفتها كنانة. وكان السبب الذي هاج هذه الحرب أن أحد أفراد قبيلة قيس عيلان تولى حماية قافلة تجارية (لطيمة) تعود للنعمان بن

(1) جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام، ص 106.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 125.

(3) ابن إسحاق: المغازي، ص 58، الطبري: تاريخ، ج 2، ص 279.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنذر متجاوزًا في ذلك على حقوق أحد أفراد قبيلة كنانة في حمايتنا فقام البراض بن قيس (من كنانة) بقتل عروة الرحال (من هوازن) واستولى على القافلة، فأدى ذلك إلى نشوب الحرب. وقد سميت هذه الحرب بحرب الفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرام التي لا يجوز فيها القتال[1].

"وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس"[2]. وقد انتهت هذه الحرب بالصلح بين الطرفين[3].

وقد ذكر أن الرسول ﷺ شارك في هذه الحرب إلى جانب أعمامه. وقد روي عنه أنه قال: "كنت أنبل على أعمامي أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها"[4]. وقد ذكر ابن إسحاق أن حرب الفجار هاجت "ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة"[5]، وقد ذهب إلى نفس القول كل من ابن قتيبة[6] والطبري[7] وابن سعد[8] والمسعودي[9]. غير أن ابن هشام يروي أن عمر رسول الله ﷺ كان في ذلك الحين أربع عشر سنة أو خمسة عشر سنة[10]. ويبدو أن ابن هشام قد قبل هذه الرواية لأنه كان قد ذكر أن دور الرسول ﷺ في هذه الحرب كان مقتصرًا على مساعدة أعمامه في القتال وليس مباشرة القتال بنفسه، غير أن أغلب الرواة كما قدمنا تذهب إلى أن عمر الرسول ﷺ كان عشرين عامًا وأنه قد ساهم بصورة فعلية في القتال إلى جانب أعمامه، وقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال عن يوم الفجار: "قد حضرته مع عمومتي، ورميت فيه بأسهم، وما أحب أني لم أكن فعلت"[11].

ويبدو أن الرسول ﷺ بعد أن بلغ مبلغ الرجال أخذ اهتمامه بالقضايا العامة يتزايد، وأخذ قومه يلحظون في شخصيته هذا الجانب، لذا فإنهم حين اجتمعوا في دار

---

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ق 1، ص 184- 1865.

(2) المصدر نفسه، ق 1، ص 186-187.

(3) ابن سعد، الطبقات، ج 1، ص 128.

(4) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 186.

(5) المصدر نفسه، ق 1، ص 186.

(6) المعارف، ص 88.

(7) تاريخ، ج 2، ص 287.

(8) الطبقات، ج 1، ص 1218.

(9) مروج الذهب، ج 2، ص 294.

(10) السيرة، ق 1، ص 184.

(11) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 128.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عبد الله بن جدعان لعقد حلف الفضول - كما أوضحنا ذلك سابقًا - دعوا الرسول ﷺ لحضور هذا الاجتماع، وكان عمره حين ذاك عشرين عامًا[1]، وقد كانت مساهمة الرسول في حضور هذا الاجتماع موضع اعتزازه وفخره. لذا فقد روي عنه أنه قال: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت"[2].

لقد استهدف حلف الفضول مساعدة "المظلوم حتى يؤدى إليه الحق ...... وفي التأسي في المعاش"[3]، وهي أهداف تلتقي مع المثل العليا التي جاء بها الإسلام، فكان من الطبيعي أن يؤكد الرسول ﷺ بعد نزول الرسالة عليه أنه لو يدعى في الإسلام لعقد مثل هذا الحلف فإنه سيلبي الدعوة.

كان محمد ﷺ يعيش في بيت عمه أبي طالب، وكان عمه كثير العيال، وليس له مال[4]، وقد حاول الرسول ﷺ في صغره وصباه أن يساعد عمه فعمل في رعي الغنم لقاء أجور بسيطة (قراريط) ولا بد أن الرسول ﷺ حين جاوز مرحلة الصبا وبلغ مبلغ الشباب حاول ترك مهنة الرعي والاشتغال بعمل يناسب سنه ويدر عليه ربحًا وفيرًا. وكان المجال الوحيد المتاح له هو العمل في التجارة، مهنة آبائه وأجداده.

ولا تزودنا المصادر التاريخية بمعلومات تساعد على تكوين فكرة واضحة عن عمل الرسول ﷺ قبل أن يصل إلى سن الخامسة والعشرين ويتصل بخديجة للعمل في تجارتها، غير أن الروايات التي تذكرها المصادر عن الدوافع التي حملت خديجة لتكليفه بالعمل في تجارتها توحي بأنه كان صاحب خبرة في هذا المجال وأنه كان يتمتع بسمعة طيبة، مما دفع خديجة لمحاولة إغرائه للعمل لديها بدفع أجور تصل إلى ضعف ما تدفعه لغيره من الأجراء. يقول ابن إسحاق إنه لما بلغ خديجة "ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجرًا إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار"[5].

ويقدم ابن سعد بعض التفصيلات التي تزيد الصورة وضوحًا، فهو يذكر أن أبا طالب حاول إقناع الرسول ﷺ للعمل في تجارة خديجة مقابل مساومتها على دفع

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص 128.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 134.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 129.

(4) المصدر نفسه، ج 1، ص 129.

(5) ابن إسحاق: المغازي، ص 59.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجور له تصل إلى ضعف ما تدفعه لغيره، يقول ابن سعد: "قال أبو طالب: يا ابن أخي، قد بلغني أن خديجة استأجرت فلاناً ببكرين (أي جملين) ولسنا نرمين لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن نكلمها؟ قال: ما أصيبت فخرج إليها فقال: هل لك يا خديجة أن تستأجري محمداً؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانًا ببكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربع أبكار"[1]، فوافقت خديجة على ذلك من دون تردد.

إن ما تقدم يشير إلى أن محمدًا ﷺ كان يمارس التجارة في سوق مكة منذ فترة طويلة، وأنه كان قد اكتسب خبرة وسمعة جيدة بين الناس، مما جعله لا يوافق على العمل بأجور موازية لأجور أقرانه من الشباب الذين كانوا يشتغلون في التجارة.

ويبدو أن الذي حمل الرسول ﷺ على الموافقة على تأجير نفسه للعمل في تجارة الآخرين أنه "لم يكن كبير المال"[2] للعمل فيه وتنميته، كما يذكر الزهري.

وهنالك من الأخبار ما يدل على أن الرسول ﷺ قد شارك غيره في العمل التجاري، فقد روي أن السائب بن أبي السائب قدم على رسول الله ﷺ وكان شريكه قال: "أما تعرفني؟ قال: أما كنت شريكي؟ فنعم الشريك، كنت لا تداري، ولا تماري"[3].

سابعا: زواج محمد ﷺ من خديجة:

إن خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، امرأة من صميم قبيلة قريش كما هو واضح من نسبها، وأمها فاطمة ابنة زائدة بن الأصم بن عامر بن لؤي[4]، وكان أبوها خويلد زعيم عشيرته وقائدهم "وفي ولده البيت والعدد"[5]. وقد ولد لخويلد ثلاث بنات هن: خديجة (أم المؤمنين)، وهالة، أم أبي العاصي بن الربيع صهر النبي ﷺ، ورفيقه، وثلاث بنين هم: العوام بن خويلد "والد الزبير بن العوام"، وحزام بن خويلد "والد حكيم بن حزام"، ونوفل بن خويلد[6].

وقد تزوجت خديجة قبل الرسول ﷺ رجلين، كان الأول هو عتيق بن عائذ المخزومي فولدت له ابنة كانت تسمى أم محمد، تزوجها صيفي بن أبي رفاعة، وقد قتل في معركة بدر كافرا[7]. وأما زوجها الثاني فكان: أبا هند بن زرارة بن النباش

---

(1) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 130.

(2) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج 6، ص 73.

(3) ابن القيم: زاد المعاد، ج 1، ص 83.

(4) ابن قتيبة: المعارف، ص 79.

(5) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص 120.

(6) المصدر نفسه، ص 120- 121.

(7) المصدر نفسه، ص 142- 143.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التميمي، ولقد ولد له منها ابن أسماه هندًا. وقد بقى هند مع أمه بعد زواجها من رسول الله ﷺ وعاش في كنفه[1]. وكان يفخر بأنه ربيب رسول الله ﷺ، وأنه أكرم الناس أبًا وأمًا وأخًا وأختًا، فكان يقول: "أبي رسول الله ﷺ، وأمي خديجة، وأختي فاطمة، وأخي القاسم"[2]. وقد عاش حتى "شهد أحدًا، وقيل شهد بدر... ومات بالبصرة"[3].

لقد وصفت المصادر خديجة بأنها "أوسط نساء قريش نسبا، وأعظمهم شرفًا، وأكثرهم مالا"[4]. كما قيل عنها أنها "امرأة حازمة، جلدة"[5]، وأنها كانت "امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه"[6].

ولم يوضح لنا المؤرخون الذين تحدثوا عن خديجة كيف أصبحت غنية ومن أين جاءت ثروتها. لذا فإن للباحث أن يفترض بأن نواة ثروتها ربما جاءت عن طريق زوجها عتيق وأبي هالة فضلا عما أخذته عن أبيها خويلد. وقد استطاعت أن تنمي ثروتها عن طريق العمل بالتجارة.

وتذهب معظم الروايات التاريخية إلى أن عمر الرسول ﷺ حين تزوج من خديجة كان خمسًا وعشرون سنة. أما هي فكان عمرها أربعين سنة[7]. وقد أشارت إحدى الروايات إلى أنه كان "ابن ثلاث وعشرين سنة وخديجة بنت ثمان وعشرين سنة"[8]. في الوقت الذي ذهبت فيه رواية أخرى إلى أن عمر خديجة ﷺ كان "آنذاك خمساً وثلاثين وقيل خمساً وعشرين"[9]. ويبدو أن الروايات التي ذهبت إلى أن عمر خديجة ﷺ كان يقل عن أربعين سنة حين زواجها من الرسول ﷺ هي الأقرب للصواب وذلك لأنها استطاعت أن تنجب من الرسول ﷺ سبعة أولاد قبل أن يدركها سن اليأس، علما بأن هذه السن تأتي النساء في البلاد الحارة بصورة مبكرة[10].

لقد بدأت علاقة خديجة مع الرسول ﷺ حين كلفته للقيام برحلة إلى الشام

---

(1) المصدر نفسه، ص 210، ابن قتيبة: المعارف، ص 80.

(2) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص 210.

(3) المصدر نفسه، ص 210.

(4) ابن إسحاق: المغازي، ص 60.

(5) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 131.

(6) ابن إسحاق: المغازي، ص 59.

(7) الطبري: تاريخ، ج 2، ص 280، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 132.

(8) ابن حبيب: المحبر، بيروت 1361هـ، ص 79.

(9) ابن كثير: السيرة النبوية، ج 1، ص 131.

(10) العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص 236.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمتاجرة في أموالها، وقد أرسلت معه في هذه الرحلة غلامًا لها يدعى ميسرة. فخرج الرسول ﷺ مع ميسرة في قافلة تجارية لقريش إلى بصرى في بلاد الشام، فباع ما معه من بضاعة هناك، واشترى ما أراد أن يشتريه، ثم أقبل راجعًا إلى مكة، فباعت خديجة ما جاء به، فربحت ضعف ما كانت تربح عادة. لذا فقد دفعت للرسول ﷺ ضعف ما سمت له من أجور لقاء قيامه بهذه الرحلة[1].

وقد أشارت بعض المصادر المتأخرة إلى أن علاقة الرسول ﷺ التجارية كانت قد بدأت مع خديجة قبل رحلته إلى الشام، فقد ذكر ابن سيد الناس رواية عن الزهري تقول أنه كلما استوى رسول الله ﷺ، وبلغ أشده، وليس له مال كبير استأجرته خديجة بنت خويلد إلى سوق حباشة بتهامة واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش، فقال رسول الله ﷺ وهو يحدث عنها: "ما رأيت من صاحبة لأجير خيرًا من خديجة، ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبؤه لنا[2] كما أورد ابن كثير رواية تقول أن الرسول ﷺ قال: "أجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلاص- أي ناقة"[3].

فإذا صحت هذه الروايات فلا بد أن علاقة الرسول ﷺ مع خديجة كانت قد بدأت قبل رحلته إلى الشام بمدة مناسبة سنتين أو أكثر، وأنه قد قام لها خلال هذه الفترة بعدة رحلات تجارية إلى مناطق وأسواق مختلفة. بل إن مفاوضة أبي طالب لها من أجل أجور أعلى للرسول ﷺ قبل رحلته إلى الشام جاءت ليست بمناسبة ابتداء عمله عندها، بل من أجل اتفاق جديد وبأجور تتناسب وكفاءة محمد ﷺ، وما كان يحققه لها من أرباح.

إن رواية الزهري التي يشيد فيها الرسول ﷺ بكرم خديجة، وأنها كانت تفاجئه وصاحبه كلما عاد من رحلة تجارية بتحفة من الطعام كانت تخبؤه لهما، توحي بأن خديجة كانت قد أسقطت الكلفة والحواجز في الحديث والمجالسة مع الرسول ﷺ مما ينسجم مع الرواية التي أوردها ابن إسحاق من أن خديجة_ حينما اقتنعت بفكرة الزواج من الرسول ﷺ، وبخاصة بعد أن حدثها غلامها ميسرة عن أوضاعه وأخلاقه في رحلته معه إلى الشام_ بعثت إليه، فقالت له: "يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك مني، وشرفك في قومك، وسطتك فيهم، وأمانتك عندهم، وحسن خلقك، وصدق

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص 59-61، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 131-133.

(2) عيون الأثر، ج 1، ص 72-73.

(3) السيرة النبوية، ج 1، ص 132.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حديثك"[1].

ويبدو أن الرسول ﷺ، قد فرح بعرض خديجة للزواج منه فرحب به، وتذهب بعض الروايات إلى أن خديجة قد مهدت لمفاتحته بالزواج بأن أرسلت إليه إحدى صديقاتها، وهي نفيسة بنت منبه للتعرف بصورة غير مباشرة على رأيه بالزواج من خديجة، فقالت له: "يا محمد ما يمنعك أن تروج؟ فقال: ما بيدي ما أتزوج به، قالت: فإن كفيت ذلك، ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ قالت: خديجة، قال: وكيف لي بذلك؟ قالت.... عليّ، قال: فأنا أفعل"[2].

وتشير الروايات إلى أن كلا من خديجة ومحمد ﷺ قد بادرا بعد اتفاقهما على الزواج، إلى استكمال متطلبات الخطوبة. فأرسلت خديجة إلى عمها ليزوجها لأن والدها كان قد توفي، كما ذهب الرسول محمد ﷺ إلى أعمامه من أجل أصطحابه للذهاب إلى عمها لمفاتحته بأمر الزواج.[3] وقد ذكر ابن إسحاق أن الذي اصطحب الرسول ﷺ من أعمامه هو حمزة، فدخل على عمها "فخطبها إليه، فتزوجها رسول الله ﷺ"[4]. وقد ذكر ابن إسحاق أن الرسول ﷺ قد دفع صداقًا - أي مهراً - لخديجة عشرين بكرة - أي عشرين جملاً[5].

وبزواج الرسول محمد ﷺ من خديجة، انتهت إقامة الرسول ﷺ في بيت عمه أبي طالب، فانتقل إلى بيت زوجته في رباع بني أسد، قرب المسجد الحرام[6].

لقد وفر زواج الرسول ﷺ من خديجة، للرسول حياة الاستقرار والطمأنينة ولم يعد العمل من أجل توفير سبل العيش يقلقه، فقد أغنته أموال خديجة عن ذلك، وإن كان ذلك لم يصرفه عن العمل، ولا بد أنه قد خصص قدرًا من وقته لإدارة أموال خديجة والإشراف على تجارتها. ولكن لم تصل إلينا أية أخبار عن قيامه بنشاطات تجارية في مكة أو قيامه بأية رحلات إلى خارجها منذ تزوج خديجة.

ويبدو من دراسة مجمل حياة الرسول ﷺ مع خديجة منذ زواجه منها وحتى وفاتها قبل هجرته إلى المدينة بثلاث سنوات أي على مدى أربع وعشرين سنة وعدة

---

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص 60.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 131.

(3) المصدر نفسه. ج 1. ص 131 - 132.

(4) ابن إسحاق: المغازي ص 60 - 61.

(5) ابن هشام: السيرة النبوية، ق 1، ص 190.

(6) الأزرق: أخسار مكة، ج 2، ص 251.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشهر[1]، أنه كان سعيدًا معها، بدليل أنه لم يتزوج عليها أية إمرأة أخرى، وأنها قد أنجبت له جميع أبنائه وبناته، عدا إبراهيم، الذي أنجبته له مارية القبطية بعد هجرته إلى المدينة.

لقد أنجبت خديجة للرسول ﷺ قبل البعثة سبعة أبناء وبنات، وهم كل من: القاسم، وبه كان يكنى، فيدعى أبا القاسم، والطاهر والطيب، وقد توفي ثلاثتهم وهم صغار قبل البعثة[2]. أما البنات فهن: زينب وقد تزوجت أبا العاص بن ربيع، وبقيت معه حتى وفاتها في السنة السابعة للهجرة. ورقية، وقد تزوجها عتبة بن أبي لهب، إلاّ أن أباه أمره بتطليقها نكاية بالرسول ﷺ بعد البعثة فتزوجها عثمان بن عفان ﷺ، فبقيت معه إلى أن توفيت في المدينة في السنة الثانية للهجرة، وأم كلثوم، وكان قد تزوجها عتبة بن أبي لهب وفارقها قبل أن يدخل بها فتزوجها عثمان بن عفان بعد وفات أختها، وقد بقيت معه حتى وفاتها في السنة الثامنة للهجرة. وفاطمة، وقد تزوجت من علي بن أبي طالب ﷺ بعد سنة من الهجرة إلى المدينة. وقد أنجبت له من الأولاد والبنات الحسن والحسين ومحسنا وأم كلثوم وزينب، وتوفيت بعد وفاة الرسول ﷺ بمائة يوم[3].

ثامنا: بناء الكعبة وتحكيم محمد ﷺ:

لا تزودنا المصادر بأية معلومات عن حياة الرسول ﷺ العامة منذ تزوج خديجة وحتى السنة الخامسة قبل البعثة، غير أنه وقعت في هذه السنة حادثة تفيدنا في التعرف على جوانب من شخصيته ﷺ ومركزه في قومه، فقد حصل في هذه السنة خصام شديد بين العشائر المكية، وكانت كل عشيرة تريد أن يكون لها شرف وضع الحجر الأسود في مكانه "فمكثت قريش أربعة ليالي أو خمسًا بعضهم من بعض، ثم أنهم اجتمعوا في المسجد، فتشاوروا وتناصفوا... فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم"، وكان كبيرًا وسيد قريش كلها، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل عليكم من باب المسجد. فلما توافقوا على ذلك ورضوا به، دخل رسول الله ﷺ. فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا بما قضى به بيننا، فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر، فقال: هلموا ثوبا، فأتوا به، فوضع رسول الله ﷺ الركن فيه بيديه، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعًا،

---

(1) ابن قتيبة: المعارف، ص 80.

(2) ابن إسحاق: المغازي، ص 61، ابن قتيبة: المعارف، ص 83.

(3) ابن قتيبة: المعارف، ص 83-84.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه رسول الله ﷺ بيده، ثم بنا عليه"[1].

إن ترحيب العشائر المتنازعة بالرسول ﷺ ليكون حكما بينهم، ووصفه بالأمين، يدل على المكانة المتميزة التي كان يتمتع بها الرسول ﷺ في أوساط قومه. كما أن مبادرته إلى تقديم الحل المناسب للنزاع من غير تردد أو تلكؤ تدل على مدى ما كان يتمتع به من حكمة وسرعة بديهة في مواجهة المواقف الصعبة. ولا بد أن مكانته قد ارتفعت في نظر عشيرته وقومه، وذلك لدقة حكمه وحسن تصرفه في معالجة هذه المسألة الصعبة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سابعاً: زعماء المشركين وأساليب مقاومتهم للدعوة:

تجمع المصادر التاريخية على أن زعماء المشركين الذين تولوا قيادة المعارضة للدعوة الإسلامية في مكة كانوا يتألفون من رؤساء العشائر القرشية ذوي الغنى والشرف والنفوذ، ومن سار في ركابهم وتعاون معهم من بقية رجال قبيلة قريش.

ويستنتج مما أوردته كتب السيرة النبوية عن مواقفهم المناوئة للدعوة الإسلامية

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص 124 – 125، العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص 338.

(2) ابن كثير: السيرة النبوية، ج 1، ص 226.

(3) ابن هشام: السيرة النبوية، ق 1، ص 316، ابن إسحاق: المغازي، ص 191.

أنهم كانوا يتوزعون على جميع العشائر القرشية[1]. وقد ذكر ابن سعد "أن أهل العداوة والمبادأة لرسول الله ﷺ وأصحابه، الذي يطلبون الخصومة والجدل: أبو جهل بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث،.."[2]، ثم ذكر نحواً من عشرين اسما من أسماء رجالات المشركين. وقد قدم لنا ابن إسحاق من قبل قائمة بنحو هذا العدد من زعماء المشركين الذي واجهوا الرسول ﷺ "بالعداوة وطلبوا له الخصومة"[3]. وقد لوحظ أن معظم هؤلاء لم يدخلوا في الإسلام، وقتلوا في معركة بدر. الأمر الذي يدل على أنهم كانوا أشد المتحمسين لمقاومة الإسلام من بين زعماء المشركين وعامتهم[4].

ويستنتج مما أوردته المصادر أن الأسلوب الذي اتبعه زعماء المشركين في مكة في مقاومة الدعوة الإسلامية قد أخذ بالاعتبار الواقع الاجتماعي السائد في مكة من حيث انتماء أبناء المجتمع إلى عشائر مختلفة وحماية كل عشيرة لأفرادها وفقًا لمبدأ التكافل بينهم في السراء والضراء. لذا فقد لجأ زعماء المشركين إلى استخدام نفوذ العشائر في الضغط على من آمن من أفرادها لحملهم على التخلي عن الإسلام.

فقد ذكر ابن إسحاق أنه حينما رأت قريش أن رسول الله ﷺ: "لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب.. فقالوا: يا أبا طالب أن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا. فأما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه فنكفيكه وإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه. فقال أبو طالب قولا رقيقًا، ورد ردًا جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه"[5].

وتشير المصادر إلى أن زعماء المشركين قد حاولوا إقناع أبي طالب بأن يتخلى عن حماية الرسول ﷺ، مقابل أن يعوضوه عن محمد ﷺ بإعطائه أحد خيرة شبابهم، وهو عمارة بن الوليد بن المغيرة عوضًا عنه، إلاّ أن أبا طالب سخر من هذا العرض ورده بقوله: "والله ما أنصفتموني، تعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابن أخي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقتلونه، هذا والله لا يكون ابدا"[1].

وحينما اشتد تحدي الدعوة الإسلامية لإخضاع المشركين في مكة، لجأ زعماؤهم إلى تهديد أبي طالب بالقتال إذا لم يمنع الرسول ﷺ عن مواصلة الدعوة ويبدو أن أبا طالب قد خشي من عواقب هذا التهديد، فبعث إلى الرسول ﷺ وطلب منه ألا يحمله من الأمر ما لا يطيق فيكف عن قول ما يكرهه المشركون من ذم لآلهتهم ومعتقداتهم. إلاّ أن الرسول ﷺ لم يتزحزح عن موقفه، وأجاب عمه بقوله: "يا عم، لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري، ما تركت الأمر، حتى يظهره الله، أو أهلك في طلبه". فتأثر أبو طالب بلهجة ابن أخيه وحماسه، وقال له: "امض على أمرك وافعل ما أحببت، فوالله لا نسلمك بشيء أبدا"[2].

وإذا كان زعماء المشركين قد عجزوا عن حمل بني هاشم وبني المطلب على الضغط على الرسول ﷺ ومن أسلم منهم للتخلي عن الدعوة، فقد كان متيسرًا لهم ممارسة مثل هذا الضغط على أبناء عشائرهم وحلفائهم الذين اعتنقوا الإسلام. يقول ابن إسحاق: "ثم إن قريشًا تآمروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا. فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم"[3].

وقد أورد الطبري رواية عن عروة بن الزبير بنفس المعنى تقول: "ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام"[4].

ويبدو أن الضغط الذي مارسه زعماء المشركين على المسلمين كان يتفاوت حسب منزلتهم الاجتماعية في قومهم. فكان أبو جهل "إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة، أنبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنفيلن - أي لنقبحنه ونخطئه - رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجرًا قال: والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به"[5].

وهكذا فقد سلك زعماء مكة أسلوبين متمايزين في الضغط على من يسلم، وقد

---

(1) المصدر نفسه، ص 133.

(2) المصدر نفسه، ص 135 – 136.

(3) المصدر نفسه، ص 129.

(4) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 328.

(5) ابن هشام: السيرة النبوية، ق 1، ص 320.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمثل الأسلوب الأول في الضغط الاجتماعي والاقتصادي، وقد استخدم ضد أبناء القبيلة الصليبية من قبل ذويهم. وتقدم لنا الرواية الآتية نموذجًا لهذا الأسلوب. روى عن بعض آل سعد بن أبي وقاص، قال: "كنا قوما يصيبنا شظف العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته. فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك وصبرنا له. وكان مصعب بن عمير أنعم غلام بمكة وأجوده حلة مع أبويه، ثم لقد رأيته جهد في الإسلام جهدًا شديدًا، حتى لقد رأيت جلده تخشف جلد الحية.."[1].

أما الأسلوب الثاني فيتمثل بالضرب والتعذيب الذي استخدمه المشركون ضد المستضعفين وبخاصة الرقيق منهم، من أمثال بلال الحبشي وعمار بن ياسر وغيرهما. ويبدو أن تعذيب المشركين لهؤلاء المؤمنين كان شديدًا جدًا. فقد سئل ابن عباس "أكان المشركون يبلغون من المسلمين في العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم. فقال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوي جالسًا من شدة الضر الذي به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة"[2].

ويظهر أن المسلمين الذين كانوا ينتمون إلى بني هاشم وبني المطلب وبقية العشائر المتحالفة معهم في حلف الفضول، لم يتعرضوا للأذى والضغط الاجتماعي من أجل ترك دينهم، مثلما تعرض المسلمون الذين ينتمون إلى عشائر عبد شمس ومخزوم وحلفائهم الذين تصدوا لمحاربة الدعوة الإسلامية بقوة[3]. لذا فقد كان أغلبية المسلمين الذي هاجروا إلى الحبشة للتخلص من الأذى والفتنة في الدين كانوا من أبناء هذه العشائر[4].

وتؤكد المصادر التاريخية، إن زعماء المشركين لم يقتصروا في مقاومتهم للدعوة الإسلامية على وسائل الضغط الاجتماعي والتعذيب من أجل حمل المسلمين على ترك دينهم، بل إنهم لجأوا في الوقت نفسه إلى أسلوب النقد لمبادئ الإسلام والتشهير بشخص الرسول ﷺ وأتباعه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاشراً: الهجرة إلى الحبشة:

قال ابن إسحاق: "فلما رأى رسول الله ﷺ أصحابه وما يصيبهم من البلاء والشدة، وإن الله قد أعفاه من ذلك، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم من قومهم، وأنه ليس في قومهم من يمنعهم كما منعه أبو طالب، أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة، وقال لهم: إن بها ملكًا لا يظلم الناس ببلاده، في أرض صدق، فتحرزوا عنده، حتى يأتيكم الله

(1) سورة الماعون، الآية 1 – 3.

(2) سورة البلد، الآية 11 – 16.

(3) سورة يونس، الآية 71 – 107، سورة هود، الآية 24 – 109، سورة القصص، الآية 3 – 88، سورة العنكبوت، الآية 14 – 43.

بفرج منه ويجعل لي ولكم مخرجًا. فهاجر رجال من أصحابه إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفروا إلى الله عز وجل بدينهم. واستخفى آخرون بإسلامهم"[1].

يتضح من رواية ابن إسحاق أن الدافع المباشر لهجرة المسلمين إلى الحبشة هو الاضطهاد الشديد الذي تعرضوا، وخوف الرسول ﷺ عليهم من أن يفتنوا في دينهم أي يكرهوا على الردة عن الإسلام. ويبدو أن هذا السبب للهجرة إلى الحبشة، هو موضع اتفاق بين جميع الروايات التي أوردتها المصادر التاريخية، وإن مما يوضح هذا السبب ويعززه ما رواه الطبري عن عروة بن الزبير أن رؤوس المشركين اتفقوا على أن يفتنوا المسلمين "عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام، فافتتن من افتتن وعصم الله منهم من شاء، فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة... فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن.."[2].

يظهر مما تقدم، أن اضطهاد المشركين للمسلمين كان شديدًا إلى درجة حملت بعضهم على الرجوع عن عقيدتهم[3]، وإن كانت المصادر لم تزودنا إلا ببعض التفاصيل عن فتنة المستضعفين من المؤمنين، أما ما وردنا عن غيرهم فلا يعدو أن يكون معلومات مقتضبة تحمل الباحثين على عدم الاطمئنان إلى أن هذا الاضطهاد كان يمكن أن يفتن المسلمين الصادقين عن دينهم، أو أن يكون ذلك مبررًا كافيا لأن يأمر الرسول ﷺ اتباعه بالهجرة إلى الحبشة فرارًا بدينهم[4]. غير أن الروايات الآنفة الذكر والآيات القرآنية تقطع بأن الاضطهاد والفتنة في الدين كانت هي العامل الأساس في هجرة المسلمين إلى الحبشة. جاء في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾[5]، ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[6]، ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص 15.

(2) الطبري: تاريخ، ج 2، ص 328 – 329.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (1).

إن القول بأن الدافع الأساس للهجرة إلى الحبشة كان هو الاضطهاد والفتنة في الدين لا يعني أنه لم تكن هناك دوافع أخرى إلى جانب السبب الأساس كالسبب الديني أو السياسي أو الاقتصادي.

إن ثناء الرسول ﷺ على ملك الحبشة ووصفه بأنه ملك عادل وأن أرضه أرض صدق دليل على أن الرسول ﷺ كان يشعر بقوة العلاقة بين دعوته وبين الديانة المسيحية، ويلاحظ أن العديد من الآيات القرآنية قد أكدت على أواصر التقارب بين الديانتين، وعبرت عن المشاعر الإيجابية التي يحملها المسلمون تجاه اتباع الديانة المسيحية(2). إن ما تقدم يجعل من غير المستبعد أن يكون الرسول ﷺ قد استهدف من حث اتباعه على الهجرة إلى الحبشة، الحصول على موطئ قدم هناك لنشر الدعوة الإسلامية فيها(3)، أو لإقامة تحالف سياسي في مرحلة ما بينه وبين النجاشي من أجل تقوية مركزه في مكة، وبخاصة وأن الأحباش كانت لديهم في الماضي مثل هذه التطلعات(4).

ويلاحظ أن السبب الاقتصادي لم يكن هو الآخر غائباً عن دوافع الهجرة إلى الحبشة، وذلك لأن قريشاً كانت قد مارست ضغطاً اقتصادياً قوياً ضد من أسلم، وكانت الحبشة أحد الأقطار التي تتجه إليها التجارة المكية، فلا غرابة أن يسعى الرسول ﷺ إلى إنقاذ أتباعه من الضغط الاقتصادي الذي فرضه عليهم تجار مكة، والعمل بعد ذلك على التضييق على تجارة مكة مع الأحباش بعد توثيق اواصر العلاقة معهم. وقد كان هذا العامل من عوامل الهجرة إلى الحبشة واضحًا فيما أورده الطبري عن عروة بن الزبير حيث يقول: "وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغاً من الرزق ومتجراً حسناً، فأمرهم بها رسول الله ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة، وخاف عليهم الفتن"(5).

وقد حاول وات أن يتوصل إلى أنه كان يقف وراء قرار الهجرة إلى الحبشة،

---

(1) سورة النحل، الآية 41.

(2) سورة الإسراء، الآية 107 – 109، سورة القصص، الآية 52 – 53: سورة الشورى، الآية 13 – 14، سورة الأعراف، الآية 157.

(3) دروزة: سيرة الرسول، ج 1، ص 278.

(4) وات: محمد في مكة، ص 185 – 186.

(5) الطبري: تاريخ، ج 2، ص 328.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالإضافة إلى الأسباب آنفة الذكر، سبب آخر هو "أنه نشأ انقسام قوي في الرأي داخل أمة الإسلام الناشئة"[1] غير أن وات، لم يلبث أن خفف من قوة التزامه بهذا الرأي حين شعر بضعف الأدلة التي استند إليها، فقال: "ولسنا بحاجة لأن نفترض أن الخلاف قد بلغ درجة عالية من الحدة، ولا أن الأسباب الأخرى المذكورة لم يكن لها تأثير"[2]، بل إن وات اختتم كلامه بالقول أنه لم يحصل انقطاع تام بين الرسول ﷺ وبين الأفراد الذين زعم أنهم قد اختلفوا معه مثل عثمان بن مظعون، وإنهم قد انتهوا بقبول سلطة الرسول ﷺ ومكانة أبي بكر فحاربوا بشجاعة كمسلمين في بدر[3]. والحقيقة أن استنتاجات وات في هذا المجال ضعيفة، وقد تصدى لها العديد من الباحثين في الرد والتفنيد، وليس من المفيد تكرار ما أوردوه في هذا المجال[4].

وهكذا فقد بدأت هجرة المسلمين إلى الحبشة بناءاً على أوامر الرسول ﷺ في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة[5] فخرجوا متسللين سراً، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، حتى انتهوا إلى الشعيبة منهم الراكب والماشي. ووفق الله تعالى للمسلمين ساعة جاؤوا سفينتين للتجار حملوهم فيها إلى الحبشة بنصف دينار، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر، حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحداً[6].

إن ما تقدم يشير إلى أن الهجرة تمت على خلاف رغبة قريش وأنها ربما كانت تتخوف من نتائجها. لذا فقد حاولت تعقب أثرهم من أجل منعهم من الهجرة. وقد أورد ابن سعد قائمة بأسماء المهاجرين، كان من أبرزهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون[7]. كما أورد ابن هشام قائمة بعشرة رجال وأربع نسوة كان بضمنها الأسماء الآنفة الذكر وقال: إنه "كان عليهم عثمان بن مظعون فيما ذكر لي بعض أهل العلم"[8].

وقد ذكر ابن سعد نقلاً عن الواقدي أن هؤلاء المهاجرين ما كادوا يستقرون

---

(1) وات: محمد في مكة، ص 186.

(2) المرجع نفسه، ص 188.

(3) المرجع نفسه، ص 189.

(4) العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص 325 – 326، خليل: دراسة في السيرة، ص 79 – 81.

(5) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 204.

(6) المصدر نفسه، ج 1، ص 204.

(7) المصدر نفسه، ج 1، ص 204.

(8) ابن هشام: السيرة النبوية، ق 1، ص 322 – 323.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بأرض الحبشة حتى بلغتهم أنباء عن دخول قريش في الإسلام فعادوا إلى مكة في شهر شوال من السنة الخامسة للبعثة[1]. أي أن المدة بين بداية هجرتهم من مكة وعودتهم إليها كانت بحدود ثلاث أشهر بضمنها الفترة التي يستغرقها السفر وهي فترة طويلة بوسائل ذلك الوقت مما يجعل قبول هذه الرواية موضع نظر.

ويضيف ابن سعد أنه "لما قدم أصحاب النبي ﷺ مكة، من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم وسطت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديدًا. فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فكانت خرجتهم الثانية أعظمها مشقة، ولقوا من قريش تعنيفًا شديدًا ونالوهم بالأذى... وكان عدة من خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلاً، ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وسبعة غرائب، فأقام المهاجرون بأرض الحبشة بأحسن جوار"[2].

وقد قدم لنا ابن إسحاق قائمة بأسماء جميع من هاجر إلى الحبشة في مختلف المراحل[3]. وقد لوحظ أن هؤلاء المهاجرين كانوا من مختلف العشائر المكية "فمن بني هاشم واحد، ومن عبد قصي واحد، ومن نوفل واحد (حليف)، ومن عبد شمس اثنان (منهم واحد حليف)، ومن تيم اثنان، ومن أسد بن عبد العزي أربعة، ومن عدي خمسة (منهم واحد حليف)، ومن أمية سبعة (منهم أربعة حلفاء)، ومن زهرة سبعة (منهم ثلاثة حلفاء)، ومن عبد الدار سبعة، ومن مخزوم ثمانية (منهم واحد حليف)، ومن عامر سبعة (منهم واحد حليف)، ومن الحارث بن فهر ثمانية، ومن جمح اثنا عشر، ومن سهم أربعة عشر (منهم واحد حليف)" [4].

وقد أشير في ضوء ما تقدم إلى أن عدد من هاجر من العشائر التي شاركت في تكوين حلف الفضول قليل نسبياً، بينما كان عدد من هاجر من أفراد العشائر التي ساهمت في حلف لعقة الدم، وهم مؤيدو بني عبد الدار في خصومتهم ضد بني عبد مناف (هاشم وأخوته) كان كبيراً[5].

إن المسألة التي تبدو جديرة بالمناقشة هنا أن ابن إسحاق في كتاب المغازي الذي نشر حديثاً[6]، يقدم لنا قائمة بأسماء أول من هاجر إلى أرض الحبشة. يصل عدد

---

(1) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 206.

(2) ابن إسحاق: المغازي، ص 205 – 210، ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 323 – 330.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 207.

(4) العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص 322.

(5) المرجع نفسه، ص 322 – 323.

(6) حققه ونشره: محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، 1976.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أفرادها من الرجال والنساء إلى خمسة وثلاثين شخصاً[1]. وقد قدم لها بقوله: "وكان ممن هاجر من مكة إلى أرض الحبشة قبل هجرة جعفر وأصحابه..." [2]. ثم يذكر أسماء المهاجرين العشرة أو الأحد عشر الأوائل مع زوجاتهم، بالإضافة إلى أسماء آخرين كانوا يصنفون مع المهاجرين إلى الحبشة ضمن الدفعة الثانية بقيادة جعفر بن أبي طالب.

إن ما تقدم يعزز الرأي الذي يقول أن الهجرة إلى الحبشة لم تكن هجرتين منفصلتين كما يذكر ابن سعد، وإنما هي هجرة واحدة تمت على نحو تدريجي، وكان المهاجرون يغادرون مكة على هيئة مجاميع صغيرة خلال مراحل استغرقت عدة سنوات[3] لذا فإن ابن إسحاق حين قدم قائمة بأسماء المهاجرين الأولين لم يذكر أنهم جميع من هاجروا، وإنما قال: إنهم "ممن هاجر..."[4]، كما أنه روى عن أم سلمة في وصف الهجرة إلى الحبشة قولها: "فخرجنا إليها إرسالاً حتى اجتمعنا بها"[5].

وإن مما يؤيد أن الهجرة إلى الحبشة كانت هجرة واحدة، إلاّ أنها جرت بصورة متتابعة وفي أوقات مختلفة ما أورده ابن سعد عن ابنة خالد بن سعيد بن العاص أنها قالت: "قدم علينا عمي عمرو بن سعيد أرض الحبشة بعد مقدم أبي بسنتين، فلم يزل هناك حتى حمل في السفينتين مع أصحاب رسول الله ﷺ وقدموا على النبي ﷺ وهو بخيبر سنة سبع من الهجرة"[6].

أما عن عودة المهاجرين من الحبشة بعد سماعهم بخبر عن إسلام قريش، فإن ابن إسحاق على خلاف ابن سعد لا يحدد تاريخ تلك العودة[7]، ويذكر أن عدد المهاجرين الذين رجعوا إلى مكة بهذه المناسبة ثلاثة وثلاثون رجلاً. ثم يقدم قائمة تفصيلية بأسمائهم[8]، ويذكر بأنهم حينما "دنوا من مكة، بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفياً"[9]. ومهما

---

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص 156 – 157.

(2) المصدر نفسه، ص 156.

(3) وات: محمد في مكة، ص 179 – 183، العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص 322.

(4) ابن إسحاق: المغازي، ص 156.

(5) المصدر نفسه، ص 194، 208.

(6) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 101.

(7) ابن إسحاق: المغازي، ص 158.

(8) ابن هشام: السيرة النبوية، ق 1، ص 364 – 369.

(9) المصدر نفسه، ق 1، ص 364.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكن الأمر بشأن الخلاف على كيفية الهجرة إلى الحبشة وعدد العائدين منها وإليها فإن من المتفق عليه أن عدد من جاء إليها من الرجال هو حوالي ثلاثة وثمانين رجلاً بالإضافة إلى ثمان عشرة امرأة عدا الأطفال والصبيان. أي أن عدد المهاجرين قد زاد على المائة مهاجر.

وتجمع المصادر على أن هؤلاء المهاجرين إلى الحبشة قد عوملوا معاملة حسنة من قبل النجاشي. فكانت حالتهم هناك كما وصفتها أم سلمة بقولها: "فنزلوا بخير دار إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلماً"[1].

ويلاحظ أنه لم تصلنا أية معلومات محددة عن الكيفية التي كان يعيش فيها المهاجرون في الحبشة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية غير أن طول الفترة التي مكث فيها المهاجرون في الحبشة والتي وصلت بالنسبة لبعضهم إلى حوالي خمسة عشر عاماً لتدعونا إلى افتراض أن مجمل أوضاعهم كانت حسنة، ولا بدّ أن معظمهم قد مارسوا التجارة هناك كما كانوا في مكة[2].

أما حياتهم الاجتماعية فيبدو أنهم كانوا منغلقين على أنفسهم بحكم اختلاف قيمهم الاجتماعية عن قيم المجتمع الحبشي، لذا فإنه لم تصلنا أخبار عن حالات تزاوج بينهم وبين الأحباش.

ويبدو أن زعماء قريش كانوا يتخوفون من العواقب السياسية وربما الاقتصادية أيضًا لهجرة المسلمين إلى الحبشة واحتمال تأثيرها على مسار الصراع بينهم وبين المسلمين في مكة. لذا فقد أورد ابن سعد رواية على أنه "لما بلغ قريشاً فعل النجاشي لجعفر وأصحابه وإكرامه إياهم، كبر ذلك عليهم وغضبوا على رسول الله ﷺ، وأصحابه، وأجمعوا على قتل رسول الله ﷺ، وكتبوا كتاباً على بني هاشم ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم، ولا يخالطوهم"[3] وكان ذلك في ليلة هلال المحرم من السنة السابعة للبعثة، كما يذكر ابن سعد[4].

إن ما تقدم، يشير إلى أن قريشاً قد فرضت المقاطعة على بني هاشم وبني المطلب كما سنوضح ذلك لاحقًا، بعد فشل مهمة عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة إلى النجاشي من أجل استعادة المهاجرين إلى الحبشة. وقد قدم لنا ابن إسحاق

---

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص 194.

(2) العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص 327.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 208 – 209.

(4) المصدر نفسه، ج 1، ص 209.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جانباً مما دار بين الوفد وبين النجاشي، حيث أخبر الوفد النجاشي بقوله "أن فتية منا سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجأوا إلى بلادك، فبعثنا إليك فيهم عشائرهم، آباءهم وأعمامهم، وقومهم لتردهم عليهم، فهم أعلم بهم عيناً"[1] غير أن النجاشي لم يقتنع بكلامهم، وأرسل إلى بعض المهاجرين وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب، فسألهم عن حقيقة دينهم فأوضحوا له تعاليم الإسلام وقرأوا عليه شيئاً من القرآن فتأثر كثيراً مما سمع[2]، ثم قال: "إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى، انطلقوا راشدين، لا والله لا أردهم عليكم"[3]. وهكذا فقد فشلت مهمة وفد قريش، وعادوا إلى مكة وهم أشد تخوفًا من النتائج التي يمكن أن تترتب على هذه العلاقة الناشئة بين المسلمين والنجاشي.

لقد أوردت المصادر روايات تذكر أن النجاشي قد أسلم، إلاّ أنه اخفى أمر إسلامه عن قومه، وإنه حينما بلغ خبر وفاته إلى الرسول ﷺ في السنة التاسعة للهجرة قام بالصلاة عليه[4]، غير أن إسلام النجاشي على فرض صحته لم تترتب عليه أية آثار عملية سوى حمايته للمسلمين الذين هاجروا إلى بلده وذلك لأنه كان قد أخفى إسلامه.

ويبدو أن المسلمين الذي هاجروا إلى الحبشة ربما استطاعوا إثارة اهتمام بعض الأحباش بالرسالة الإسلامية، ودفعوهم لمحاولة التعرف عليها. فقد ذكر ابن إسحاق أنه "قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى حين ظهر خبره من الحبشة. فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه، فكلموه وسايلوه. ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة. فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله، وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره"[5].

ويلاحظ أن ابن إسحاق قد ذكر بعد إيراده لهذه الرواية أنه ويقال: "أن النفر النصارى من أهل نجران، فالله أعلم أي ذلك كان"[6].

---

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص 195.

(2) المصدر نفسه، ص 195 – 196.

(3) المصدر نفسه، ص 196.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 258 – 259.

(5) ابن إسحاق: المغازي، ص 199 – 200، ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 391 – 392.

(6) المصدر نفسه، ص 200، المصدر نفسه، ق 1، ص 392.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يظهر مما تقدم أن تأثير المهاجرين إلى الحبشة كان محدودًا على المستوى السياسي والديني، إذ لم تترتب على هجرتهم أية آثار واضحة على هذين المستويين بل إن أحد المسلمين المهاجرين إلى الحبشة وهو عبيد الله بن جحش قد تنصر وفارق زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب فتزوجها الرسول ﷺ(1).

ويذكر أن عبيد الله بن جحش كان "حين تنصر يمر بأصحاب رسول الله ﷺ وهم هنالك من أرض الحبشة، فيقول: فقحنا وصأصأتم، أي أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر"(2).

في ضوء ما تقدم، فقد كان من الطبيعي أن يأخذ المهاجرون إلى الحبشة بالعودة منها بصورة تدريجية وبخاصة بعد أن نجح الرسول ﷺ في تأمين قاعدة أمينة للدعوة في المدينة المنورة. يقول ابن سعد أنه حين سمع المسلمون الموجودون في الحبشة بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً، ومن النساء ثماني نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحبس سبعة نفر بمكة، وشهد بدرًا منهم أربعة وعشرون رجلاً"(3).

إن النص آنف الذكر يوحي بأن هؤلاء المهاجرين عادوا إلى مكة بعد بيعة العقبة الثانية حينما كان الرسول ﷺ وصحبه يستعدون للهجرة إلى المدينة.

كما أورد ابن هشام قائمة بأسماء أربعة وثلاثين "ممن هاجر إلى الحبشة ولم يقدم إلا بعد بدر"(4) إلى المدينة. وكان آخر العائدين ستة عشر مهاجراً كان على رأسهم جعفر بن أبي طالب. وقد عادوا إلى المدينة في السنة السابعة للهجرة بعد أن أرسل الرسول ﷺ في طلبهم إلى النجاشي(5). وقد أظهر الرسول ﷺ سروراً عظيماً بعودتهم. فقد روى ابن هشام عن الشعبي "أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قدم على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر، فقبل رسول الله ﷺ بين عينيه، والتزمه، وقال: ما أدري أيهما أسر: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر"(6).

إن هذه الحفاوة الكبيرة التي قابل بها الرسول ﷺ جعفر بن أبي طالب وبقية العائدين من الحبشة، لتدل على أن الرسول ﷺ كان يشعر بالرضا عنهم، ومن المحتمل

---

(1) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 223 – 224.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 223.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 207.

(4) ابن هشام: السيرة، ق 2، ص 367.

(5) المصدر نفسه، ق 2، ص 359، 364.

(6) المصدر نفسه، ق 2، ص 359.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنهم كانوا قد أدوا من الأعمال هنالك ما استحقوا عليه مثل هذه الحفاوة على الرغم من أن المصادر لم تزودنا بشيء عن تلك الأعمال خلال فترة إقامتهم في الحبشة التي استمرت لمدة خمسة عشر عاماً كانت حافلة بالأحداث بالنسبة لإخوانهم الذين بقوا في مكة والذين هاجروا وجاهدوا مع رسول الله ﷺ في المدينة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خامساً: بيعة العقبة الثانية:

حين أقبل موسم الحج من السنة التالية للسنة التي وقعت فيها بيعة العقبة الأولى، أي في سنة 12 للبعثة الموافقة لسنة 622م "مشى أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا بعضهم إلى بعض يتواعدون المسير إلى الحج وموافاة رسول الله ﷺ [2] في مكة لغرض دعوته للهجرة إلى مدينتهم حيث ائتمروا جميعًا وقالوا: "حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطول ويطرد في جبال مكة ويخاف؟ "[3].

وقد ذكر ابن إسحاق أن عدد المسلمين الذين ذهبوا إلى مكة مع حجاج قومهم من أهل الشرك كان ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين[4]. إلاّ أن ابن سعد يشير إلى أن عددهم كان سبعين، يزيدون رجلاً أو رجلين ضمن حجاج الأوس والخزرج من المشركين الذين بلغ مجموعهم مع المسلمين خمسمائة[5]. وقد أوضح عروة بن الزبير أن وفد الأنصار كان في أربعين رجلاً من ذوي أنسابهم وأشرافهم، وثلاثين شابًا[6].

ولا تتفق المصادر على دور مصعب بن عمير في توجه وفد الأنصار إلى مكة، ففي الوقت الذي يذكر فيه ابن إسحاق أن مصعبًا كان قد رجع إلى مكة قبل أن يتوجه وفد الأنصار إليها[7]. يقول ابن سعد أن مصعبًا "خرج مع السبعين حتى وافوا الموسم مع رسول الله ﷺ "[8].

وبعد وصول وفد الأنصار إلى مكة قابلوا رسول الله ﷺ فيها فواعدهم على الاجتماع بهم عند العقبة بعد أن يفرغوا من أداء مناسك الحج. وأمرهم أن يلتزموا بالسرية التامة حين التوجه إليه فلا " ينبهوا نائما ولا ينتظروا غائبًا" [9].

---

(1) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 335

(2) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 221.

(3) ابن كثير: السيرة النبوية، ج 1، ص 334.

(4) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 441.

(5) ابن سعد: الطبقات، ج 13، ص 221.

(6) ابن الزبير، مغازي رسول الله، ص 125.

(7) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 438.

(8) ابن سعد: الطبقات، ج 13، ص 220.

(9) المصدر نفسه، ص 221.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعندما حان موعد الاجتماع، ومضى ثلث الليل، خرج الأنصار من رحالهم لحضور موعدهم مع الرسول ﷺ يتسللون "تسلل القطا مستخفين" حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة[1].

وكان الرسول ﷺ قد سبقهم إلى مكان الاجتماع وبصحبته عمه العباس بن عبد المطلب وكان لا يزال مشركا[2] وقد شكك بعض الباحثين المعاصرين في واقعة حضور العباس هذا الاجتماع، وعدوا ذلك محض اختراع "استخدمته الدعاية العباسية"[3] لتقوية مركز الخلفاء العباسيين الذين كانوا ينتسبون للعباس.

غير أن إجماع المصادر التاريخية على ذكر هذه الواقعة جعل من غير المناسب التسرع في أعمال مبدأ الشك وبخاصة وإن بالامكان افتراض أن الرسول ﷺ قد أفلح في إقناع عمه العباس بأداء دور الحامي والمدافع عنه، كما كان يفعل أخوه أبو طالب من أجل تقوية مركزه أمام الأنصار فلا يبدو رجلاً قد تخلى أهله وعشيرته عنه في مجتمع يقيم لمثل هذه الانتماءات وزنا كبيرًا. لذا فقد ذكر ابن إسحاق أن العباس "أحب أن يحظر أمر ابن أخيه ويتوثق له"[4].

ويلاحظ أن الروايات لا تتفق فيما بينها على تفاصيل ما أوردته عن بيعة العقبة، لكن الصورة الإجمالية لما وقع في الاجتماع هي موضع اتفاق بينها.

لقد افتتح العباس الاجتماع بتوجيه خطابه إلى الحاضرين من الأوس والخزرج بقوله: " أن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده" [5].

وقد عقب الأنصار على كلام العباس بقولهم: " قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت"[6]، مما يشير إلى حماسة الأنصار واستعدادهم الكامل للاستجابة لشروط الرسول ﷺ للهجرة إلى مدينتهم. " فتكلم

---

(1) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 441.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 441. ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 221 – 222، الطبري: تاريخ، ج 2، ص 362.

(3) وات: محمد في مكة، ص 232-233.

(4) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 441.

(5) المصدر نفسه، ق 1، ص 241-442.

(6) المصدر نفسه، ق 1، ص 442.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعى إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نسائكم وأبنائكم... فأخذ البراء بن معرور (من الخزرج) بيده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر.. [1]، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان من الأوس فقال: "يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها- يعني اليهود- فهل عسيت أن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟... فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم"[2].

إن ما تقدم يشير إلى أن بيعة العقبة الثانية قد تضمنت تعهدًا من الأنصار بحماية الرسول ﷺ حينما يصل إلى مدينتهم والدفاع عنه كما يدافعون عن أنفسهم. وفي المقابل، فقد عد الرسول ﷺ نفسه واحدًا منهم، يتضامن معهم في جميع الأحوال.

ويلاحظ أن المتحدثين من الأنصار كان أحدهما من الخزرج والآخر من الأوس، وبذلك عبروا عن وحدة موقف مسلمي المدينة تجاه دعوة الرسول ﷺ للهجرة إلى المدينة. ولكن ما هو موقف بقية سكان المدينة من المشركين واليهود.. يبدو أن مبايعة الأنصار قد تمت من دون علم هذه الأطراف، وذلك لحرص الرسول ﷺ والأنصار على إحاطة اتفاقاتهم في مراحلها المبكرة بالسرية، ووضع قريش وأهل المدينة من غير المسلمين أمام الأمر الواقع. ويظهر من الحوار الذي دار بين أبي الهيثم بن التيهان والرسول ﷺ أن احتمالات حصول مشكلات بين بعض أهل المدينة والأنصار بحيث تؤدي إلى قطع الروابط التي تربطهم بهم، كانت موضع اعتبار. لذا أكد الرسول ﷺ للأنصار أن اتفاقه معهم هو اتفاق نهائي لا رجعة فيه، يلتزم بموجبه الرسول ﷺ بمحاربة من يحارب الأنصار ومسالمة من يسالمونه.

لقد طلب الرسول ﷺ من الأنصار بعد أن تمت مبايعتهم له أن يخرجوا له اثني عشر نقيبا ليكونوا كفلاء على قومهم وأن يكون هو كفيلاً على المسلمين من قومه في مكة [3]. فقال لهم: "أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم [4] فأخرجوا له تسعة نقباء من الخزرج وثلاثة من الأوس. وذلك لأن عدد الخزرج بين

---

(1) المصدر نفسه، ق 1، ص 442.

(2) المصدر نفسه، ق 1، ص 442.

(3) المصدر نفسه، ق 1، ص 446.

(4) المصدر نفسه، ق 1، ص 443.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأنصار كان أكبر بكثير من عدد الأوس الذين لم يزيدوا عن أحد عشر شخصًا من مجموع الذين بايعوا الرسول ﷺ بيعة العقبة الثانية[1].

ويبدو أن مشركي مكة وصلتهم بعض الأخبار غير المؤكدة عن اجتماع العقبة، وأدركوا أن ذلك في حالة حصوله قد يكون بداية لتدهور علاقاتهم الحسنة مع أهل المدينة. لذا فقد توجه بعض رجال المشركين إليهم، فقالوا لهم: إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم"[2]، فانبرى بعض مشركي المدينة ممن لم يكونوا يعلمون شيئا عن هذا الأمر بتكذيب الخبر. ويروى أن عبد الله بن أبي سلول، وهو أحد زعماء الخزرج، قال لهم: " إن هذا لأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا علي بمثل هذا وما علمته كان"[3].

لقد أشير إلى أن زعماء المشركين في مكة استاءوا كثيرًا من موقف أهل المدينة حينما تأكدوا من خبر مبايعتهم للرسول ﷺ على الهجرة إلى مدينتهم [4] حتى أنهم حاولوا تعقب أثرهم بعد مغادرتهم مكة من أجل إلحاق الأذى بهم، إلاّ أنهم لم يفلحوا سوى في إلقاء القبض على سعد بن عبادة أحد النقباء من الخزرج فأتوا به مكة وهم يضربونه، ولم يستطيع الخلاص منهم إلا بعد أن ذكرهم بإجارته لتجارهم الذين يمرون بالمدينة، فأطلقوا سراحه[5].

إن بيعة العقبة الثانية كانت بداية النهاية للمرحلة المكية من الدعوة التي اتسمت بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. لذا فقد شكلت شروط البيعة بداية أسلوب جديد، يسمح باستخدام القوة واللجوء إلى الحرب في مجاهدة الأعداء. روى ابن إسحاق أن عبادة بن الصامت، وكان أحد النقباء، قال: "بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب - وكان عبادة من الاثني عشر نقيباً الذين بايعوه في العقبة الأولى على بيعة النساء - على السمع والطاعة" في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا، وأثره علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم"[6].

---

(1) الحديثي، د. نزار: الأمة والدولة في سياسة النبي والخلفاء الراشدين، ص 95.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 448.

(3) المصدر نفسه، ق 1، ص 449.

(4) المصدر نفسه، ق 1، ص 449.

(5) المصدر نفسه، ق 1، ص 449-450.

(6) المصدر نفسه، ق 1، ص 454.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويلاحظ أن الشروط الواردة في حديث عبادة بن الصامت لم ترد بهذه الصراحة والوضوح في المداولات والحوارات التي رويت لنا عن بيعة العقبة الثانية، مما يدل على أنها كانت في ضمن المفهوم العام للبيعة التي كرست مركز الرسول ﷺ بالنسبة لأهل المدينة بصفته رسولا - قائدًا له حق السمع والطاعة على أتباعه كافة.

لقد أدى نجاح الرسول ﷺ في الحصول على أنصار له من أهل المدينة إلى شعور مشركي مكة بالخطر وقيامهم بتشديد الخناق على المؤمنين فى مكة ومحاولة فتنتهم عن دينهم، فكانت الفتنة الأخيرة التي أصابت المسلمين والتي حملتهم على المسارعة في الهجرة إلى المدينة. يقول الطبري في رواية له من عروة بن الزبير "أنه حين بايع الأنصار الرسول ﷺ بيعة العقبة الثانية اشتدت قريش على المؤمنين من أهل مكة" فأمر الرسول ﷺ بالخروج إلى المدينة وهي الفتنة الآخرة، التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه وخرج، وهى التي أنزل الله عز وجل فيها: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾(1) (2).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثالث عشر: انتهاء المقاطعة:

يقول عروة بن الزبير أنه لما كان ثلاث سنين على المقاطعة "تلاوم رجال من بني عبد مناف ورجال من بني قصي ورجال ممن سواهم، وذكروا الذي وقعوا فيه من القطيعة، فأجمعوا أمرهم في ليلتهم على نقض ما تعاقدوا عليه والبراءة منه"[(3)].

ويقدم لنا ابن إسحاق صورة حية عن الحوارات التي جرت بين بعض هؤلاء الرجال وهم يتحركون من أجل إيجاد تكتل يعمل على نقض صحيفة المقاطعة، فذكر أن هشام بن عمرو "مشى إلى زهير بن أبي أمية فقال له: قد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟ لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، ولا يأمنون ولا يؤمن عليهم. أما إني أحلف بالله، لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا. قال: ويحك، فما أصنع؟ أنا رجل واحد، فقال: قد وجدت ثانيًا. قال: ومن هو؟ قال: أنا أقوم معك، فقال له زهير: ابغنا ثالثًا. فذهب إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقال له: يا مطعم، قد رضيت أن تهلك بطن من بني عبد مناف وأنت شاهد

تاريخ، ج 2، ص 338 – 340.

(1) سورة النجم، الآية 21 – 26.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 364، 369.

(3) عروة بن الزبير: مغازي رسول الله، ص 115.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على ذلك موافق عليه؟ أما والله، لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها سراعًا منكم"[1].
وهكذا استمر هؤلاء الرجال في التحرك حتى كسبوا إلى جانبهم إضافة إلى من تقدم ذكرهم كلا من أبي البختري بن هشام، وزمعه بن الأسود بن المطلب بن أسد "فتواعدوا عند حطم الحجون ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها. فقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أولكم، فلما أصبحوا غدوا على أمنيتهم وغدا زهير بن أبي أمية في حلة له فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس"[2]، فعرض عليهم جوانب الظلم التي تضمنتها الصحيفة، وطالب بتمزيقها، فتصدى لمعارضته أبو جهل بقوة، إلاّ أن بقية الرجال الذين كانوا مع زهير قاموا في وجه أبي جهل وأيدوا زهيراً في مطلبه، وقالوا بأنهم لم يرضوا عنه وهذه الصحيفة حين كتبت عند ذلك أسقط في يد أبي جهل وعرف ألا جدوى من المعارضة، لأن الأمر متفق عليه، فاستسلم قائلاً: "هذا أمر قضي بليل"[3].

إن رواية ابن إسحاق الآنفة الذكر تشير إلى أن الصحيفة قد تم نقضها من خلال إيجاد رأي عام معارض، ومن دون اللجوء إلى قوة السلاح أو التهديد باستخدامه. غير أن ابن سعد يورد رواية تشير إلى أن القوة كانت هي الحكم الفصل في هذه المسألة. فيقول أن رجالاً من قريش تلاوموا على ما صنعوا فيهم الرجال الخمسة الواردة أسماؤهم أعلاه "ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم، ففعلوا، فلما رأت قريشًا ذلك سقط في أيديهم وعرفوا أن لن يسلموهم"[4].

فنحن هنا أمام تكتل يضم بني هاشم وبني المطلب بالإضافة إلى كافة الرافضين لصحيفة المقاطعة وأن هذا التكتل على استعداد لاستخدام السلاح من أجل كسر المقاطعة. لذا فإن أبا جهل ومن كان يؤيده أحسوا بالضعف والتخاذل فاستسلموا أمام التهديد.

وإن مما يؤيد رواية ابن سعد، أن ابن إسحاق ذكر في روايته أن أبا طالب كان جالساً في ناحية المسجد ليرى ما يصنع القوم حينما جاؤوا لنقض الصحيفة[5].

---

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص 146.

(2) المصدر نفسه، ص 146 - 147.

(3) المصدر نفسه، ص 147.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 210.

(5) ابن إسحاق: المغازي، ص 147.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مما يدل على أن ابن إسحاق يتفق مع ابن سعد على أن بني هاشم كانوا قد أخرجوا من الشعب من قبل دعاة نقض المقاطعة وإن كانت روايته لم تذكر هذه التفاصيل.

لقد ذكر ابن إسحاق أنه حينما تقرر نقض الصحيفة، قام المطعم بن عدي "إلى الصحيفة فشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم"[1]. بينما ذكر عروة بن الزبير، وكذلك موسى بن عقبة أن الصحيفة كانت معلقة في سقف الكعبة، "وكان فيها عهد الله وميثاقه، فلم تترك شيئاً إلا لحسته، وبقي فيها ما كان من شرك أو ظلم أو بغي"[2].

إن الجمع بين الروايات المتقدمة يشير إلى اتفاقها على أن الصحيفة كانت قد تآكلت بفعل حشرة الأرضة على الرغم من اختلافها في تحديد الأجزاء التي تآكلت وانمحت منها. ثم جاء التصميم والفعل الإنساني الذي أفرزه صمود بني هاشم وبني المطلب إلى جانب الرسول ﷺ ليحسم الأمر وينهي صحيفة المقاطعة وما حوته من ظلم وعدوان. لقد استمرت المقاطعة كما تؤكد أغلب الروايات حوالي ثلاث سنوات، لاقى فيها بنو هاشم وبنو المطلب مسلمهم وكافرهم شتى صنوف الأذى والاضطهاد، وجاءت النهاية وخرجوا من شعبهم، وقد فشلت المقاطعة، وتفرقت وحدة خصومهم، وكان ذلك في حدود سنة 10 للبعثة الموافق لسنة 619م. فهل كان ذلك إيذانًا ببداية عهد من الانفراج والتسامح مع الدعوة أم بداية لحلقة جديدة من حلقات الصراع بين الرسول ﷺ وبين زعماء المشركين في مكة.

---

(1) ابن الزبير: مغازي رسول الله، ص 115: ابن عقبة: مغازي رسول الله، ص 98 – 99.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 210.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولاً: محاولة نشر الدعوة في الطائف:

إن التطورات الآنفة الذكر قد أقنعت الرسول ﷺ بالبحث عن موطن آمن للدعوة خارج مكة. وكانت مدينة الطائف هي أقرب المدن إلى مكة. فقد كانت تقع على مسافة ستين ميلاً من مكة في أرض تتوفر فيها الينابيع والمياه، وتكثر فيها المزارع والبساتين، وبخاصة الكروم والأعناب. وكان سكانها منقسمين على أنفسهم، وفيها عشيرتان بارزتان هما بنو مالك والأحلاف، فأما بنو مالك فكانت علاقتهم وثيقة بهوازن، وأما الأحلاف فكانت علاقتهم أوثق بمكة [3].

ويبدو أن الرسول ﷺ قد فكر بالذهاب إلى الطائف نظرًا للروابط الوثيقة التي كانت تربط أهلها بمكة من الناحية الاقتصادية والسياسية والدينية. ومن المحتمل أن الرسول ﷺ قد قدر أن بعض أهل الطائف ربما كانوا يشعرون باستغلال أغنياء مكة لهم ويطمحون للتخلص من نفوذهم عليهم، الأمر الذي قد يدفعهم للتعاون مع الرسول ﷺ أو الإيمان به رغبة في تأكيد قوتهم ومركزهم تجاههم [4].

ومهما يكن من حقيقة الدوافع الآنفة الذكر، فإن الرسول ﷺ قد توجه إلى الطائف، "يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل"[5]. وقد ذكر ابن إسحاق أن الرسول ﷺ توجه إلى الطائف وحده[6]. بينما يؤكد ابن سعد أنه كان قد " خرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة، وذلك في ليال بقين

---

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص 212-214.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 416.

(3) العلي: محاضرات في تاريخ العرب، ص 334.

(4) المرجع نفسه، ص 334-335، وات: محمد في مكة، ص 220-221.

(5) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 419.

(6) المصدر نفسه: ق 1، ص 4191.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من شوال سنة عشر من حين نبئ رسول الله ﷺ "[1] وربما كان ما ذكره ابن سعد هو الأقرب للصواب نظرًا لأن طبيعة السفر في ذلك الوقت، وما يكتنفه من صعوبات ومشاق، كان يتطلب ألا ينفرد الرسول ﷺ وحده بالسفر.

وقد ذكر ابن إسحاق أن الرسول ﷺ عمد حين وصوله إلى الطائف إلى محادثة ثلاثة أخوة. وهم عبد يا ليل وأخويه، وكانوا يومئذ من سادة ثقيف وأشرافهم [2]. وقد أشير إلى أن هؤلاء كانوا "ينتمون لقبيلة عمر بن عمير المنتمية للأحلاف، فكانوا بذلك من أنصار قريش، وربما راود- الرسول ﷺ - الأمل باستمالتهم إليه بالتلويح لهم بتحريرهم من سيطرة مخزوم المالية" [3] غير أنهم لم يصغوا إلى الرسول ﷺ باهتمام، وعملوا على الإساءة إليه، وذلك بأن "أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه ناس، وألجأوه إلى حائط - أي بستان - لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه"[4] وكانا من رجال بني عبد شمس في مكة الذين لهم أموال في الطائف.

غير أن ابن سعد يورد رواية تشير إلى أن اتصالات الرسول ﷺ لم تقتصر على هؤلاء الثلاثة، بل إنها تجاوزتهم إلى غيرهم وذلك لأنه مكث عشرة أيام بحيث "لم يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه فلم يجيبوه وخافوا على أحداثهم، فقالوا: يا محمد أخرج من بلدنا والحق بمجابك من الأرض، وأغروا به سفهاءهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أن رجلي رسول الله ﷺ لتدميان وزيد بن حارثة يقيه بنفسه"[5].

لقد أورد ابن إسحاق عن الرسول ﷺ دعاء يعبر عن مقدار الألم والتأثر الذي أحس به نتيجة سوء استقبال ومعاملة أهل الطائف له جاء فيه: " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي... "[6].

ويبدو أن أحد الآثار السلبية التي ترتبت على فشل الرسول ﷺ في الحصول على نصرة أهل الطائف له في مواجهة قومه، أن عشيرته عدت تصرفه هذا نوعًا من الانخلاع

---

(1) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 211.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 419.

(3) وات: محمد في مكة، ص 220.

(4) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 420.

(5) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 212.

(6) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 420.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو التخلي عن حماية العشيرة. وبالتالي أصبح أمر عودته إلى مكة من الأمور المحفوفة بالمخاطر. لذا فقد أخذ الرسول ﷺ يبحث له عن شخص قوي يدخل مكة تحت حمايته أو جواره.

يقول الطبري إن الرسول ﷺ "لما انصرف من الطائف مريدًا مكة مر به بعض أهل مكة. فقال له رسول ﷺ: هل أنت مبلغ عني رسالة أرسلك بها: قال: نعم، قال: أئت الأخنس بن شريق: فقل له: يقول لك محمد: هل أنت مجيري حتى أبلغ رسالة ربي؟ قال: فأتاه، فقال له ذلك، فقال الأخنس: إن الحليف لا يجير على الصريح. قال: فأتى محمد ﷺ، فأخبره قال: تعود؟ قال: نعم، قال: إئت سهيل بن عمرو، فقل له: إن محمدًا يقول لك: هل أنت مجيري حتى أبلغ رسالات ربي. فأتاه فقال له ذلك، قال: فقال: إن بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب. قال: فرجح إلى النبي ﷺ فأخبره، قال: تعود؟ قال: نعم، قال: إئت المطعم بن عدي، فقل له: إن محمدًا يقول لك: هل أنت مجيري حتى أبلغ رسالات ربي؟ قال: نعم، فليدخل، قال: فرجع الرجل إليه، فأخبره وأصبح المطعم بن عدي قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه، فدخلوا المسجد، فلما رآه أبو جهل، قال: أمجير أم متابع؟ قال: بل مجير، فقال: قد أجرنا من أجرت فدخل النبي ﷺ مكة وأقام بها"[1].

ويلاحظ أن مركز الرسول ﷺ في مكة بعد عودته إليها من الطائف قد غدا أضعف عما كان في السابق، لأنه أصبح بمنزلة الحليف أو المولى بعد أن كان ابن عشيرة صميم، فلا عجب أن يكون عرضة إلى مزيد من الأذى والاضطهاد كما أن من الطبيعي أن يضاعف جهوده في مجال البحث عن موطن آمن للدعوة في خارج مكة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سادسا: الهجرة إلى المدينة:

لقد سعى الرسول ﷺ بعد أن تمت بيعة العقبة الثانية مع أهل المدينة في شهر ذي الحجة من السنة الثانية عشر للبعثة على تشجيع أصحابه المكيين للهجرة إلى المدينة قبل أن يهاجر هو بنفسه وذلك من أجل توجيه عملية الهجرة والاطمئنان على وصول أتباعه إلى المدينة بسلام واستقرارهم فيها.

يقول ابن إسحاق أنه حين أمر الرسول ﷺ أصحابه المكيين "بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: إن الله عز وجل جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها. فخرجوا إرسالا - أي جماعة في أثر جماعة -، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة"(3).

وقد حاول المهاجرون أن يحيطوا أمر مغادرتهم لمكة بجو من الهدوء والسرية كي لا يثيروا حفيظة قريش عليهم فتعمد إلى منعهم من الهجرة واضطهادهم " فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك " (4). غير أن المحافظة على

---

(1) سورة البقرة: الآية 193.

(2) الطبري: التاريخ، ج 2، ص 366، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 226.

(3) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 468.

(4) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 226.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سرية الهجرة في مدينة صغيرة مثل مدينة مكة كانت أمرًا في غاية الصعوبة وبخاصة وأن بعض الأسر قد هاجرت بأكملها مثل بني مظعون وبني جحش بن رئاب البكير فإن دورهم غلقت بمكة هجرة، ليس فيها ساكن[1].

ويبدو أن بعض الأسر المكية قد حاولت منع أبنائها من الهجرة باستخدام القوة ضدهم وعملت على فتنتهم عن دينهم. فقد ذكر ابن إسحاق أن عمر بن الخطاب حينما أراد الهجرة إلى المدينة اتفق مع عياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي على أن يلتقوا في وقت ومكان محدد، فإن تخلف أحدهم عن الموعد فمعنى ذلك أنه قد حبس فليمضي صاحباه، فلما حان الوقت المتفق عليه، حضر عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة وحبس هشام" وفتن وافتتن"[2].

وقد مارس زعماء المشركين الضغط على الموالي والمستضعفين لمنعهم من الهجرة. فقد ذكر ابن هشام أن " صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش أتيتنا صعلوكاً حقيراً. فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم أن جعلت لكم مالي اتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني جعلت لكم مالي قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: ربح صهيب، ربح صهيب"[3].

وقد ترتب على الهجرة انقسام بين أفراد الأسرة الواحدة في حالة اختلافهم في العقيدة، فقد رفضت زوجات بعض المسلمين ممن كن لا زلن على الشرك الهجرة مع أزواجهن إلى المدينة، فأمر الله المسلمين بطلاقهن: ﴿ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ ﴾[4]، كما أشار إلى مثل هذه الحلات بقوله:﴿ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوًّا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ ﴾[5]. كما أن بعض النساء المؤمنات تركن أزواجهن الكفار وهاجرن إلى المدينة. وقد أشار القرآن الكريم إليهن بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ

---

(1) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 499.

(2) المصدر نفسه، ق 1، ص 474.

(3) المصدر نفسه، ق 1، ص 477.

(4) سورة الممتحنة، الآية 10.

(5) سورة التغابن، الآية 14.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ﴾[1]. وكان ممن هاجرن من المؤمنات أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وأميمة بنت ليث، وقد قام المسلمون بدفع صداقهما إلى زوجيهما الكافرين[2].

ويلاحظ أن متطلبات الهجرة في ذلك الوقت لم تكن سهلة، وبخاصة لضعفاء الناس وفقرائهم، فكان بعضهم يضطر للسفر على قدميه من مكة إلى المدينة نظرًا لعدم وجود راحلة يستعين بها في سفره. فقد ذكر ابن سعد أن المهاجرون كانوا يخرجون من مكة إلى المدينة مشاة وركبانًا "أما أهل القوة فركبانًا ويعتقبون، وأما من لم يجد ظهرًا فيمشون"[3].

وعلى الرغم من كل المصاعب التي كانت تقف وراء الهجرة وتحيط بها، فقد هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة، وكان عدد المهاجرين سبعين مسلماً[4]، ولم يبق في المدينة أحد من المسلمين "إلا من حبس أو فتن"[5].

ويبدو أن عدد المحبوسين والمفتونين عن دينهم في مكة لم يكن قليلاً، لذا فقد استحق الموضوع معالجة القرآن له في عدة آيات نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾[6].

وتشير المصادر إلى أن المسلمين حين هاجروا من مكة وتركوا دورهم أمانة عند قومهم، فحافظ قسم منها عليها ولم يمسها بسوء، في حين تصرف القسم الآخر بها وباعها. لذا فقد قام حسان بن ثابت بمدح من أمسك على "دور من هاجر من قومه عليهم، وذم بعض من باع دور من هاجر من قومهم"[7]. وقد ذكر ابن إسحاق أنه "لما

---

(1) سورة الممتحنة، الآية 10.

(2) العلي: الدولة في عهد الرسول، ص 83.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج 3، ص 271.

(4) وات، محمد في مكة، ص 236.

(5) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 480.

(6) سورة النساء، الآية 97-99.

(7) ابن بكار، الزبير، جمهرة نسب قريش وأخبارها، القاهرة 1381 هـ، ج 1، ص 160-161.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم، عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها..."[1] كما أن عقيل ابن أبي طالب قام بأخذ البيت الذي ولد فيه الرسول ﷺ وباعه بعد هجرته وكذلك فعل معتب بن أبي لهب بأخذه بيت خديجة زوجة الرسول ﷺ وبيعه[2].

وهكذا كانت الهجرة عملاً عظيمًا بكل ما تنطوي عليه من تضحية بالأهل والموطن والمال في سبيل الحفاظ على حرية الفكر والعقيدة، فلا عجب ألا يستطيع الإقدام عليهما إلا الصفوة من المؤمنين الصادقين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

احدى عشر: المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية لبني هاشم:

تشكل مقاطعة قريش لبني هاشم وبني المطلب حلقة مهمة من حلقات الصراع الذي كان دائراً بين زعماء المشركين في مكة وبين الرسول ﷺ. وهي تتداخل من حيث أسبابها والظروف التي أحاطت بها بهجرة المسلمين إلى الحبشة بصورة وثيقة.

وقد ترتب على ذلك حصول بعض الاختلاف والتضارب في الروايات التي قدمها كتاب السيرة النبوية الأوائل عن المقاطعة من حيث أسبابها وتوقيتها وانتهائها. لذا فإننا سنحاول عرضها بصورة مبسطة واستنادًا إلى أقدم وأدق الروايات التاريخية التي بين أيدينا في هذا المجال[1]، وحسب النقاط الآتية:

1. لقد سعى زعماء المشركين من أجل إقناع أبي طالب في حالة عجزه عن منع الرسول ﷺ من مواصلة الدعوة أن يتخلى عنه، ويسمح لقريش أن تقتله[2]، إلاّ أن أبا طالب وأفراد عشيرته "أنفوا أن يستذلوا ويسلموا أخاهم لمن فارقه من قومه"[3].
2. حين أدرك أبو طالب أن زعماء المشركين قد أجمعوا "مكرهم وأمرهم على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية،.. جمع بني عبد المطلب، فأجمع لهم أمرهم على أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ويمنعوه ممن أراد. فاجتمعوا على ذلك كافرهم ومسلمهم، منهم من فعله حمية ومنهم من فعله ايماناً ويقيناً"[4].
3. فلما رأى رسول الله ﷺ أنه قد أصبح في مأمن من أذى قومه بعد دخوله الشعب وحماية عمه له، بينما لا زال أصحابه يتعرضون لشتى صنوف الأذى والاضطهاد "أمر رسول الله ﷺ من كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة"[5]، وبذلك تكون الهجرة إلى الحبشة التي بدأت في شهر رجب من السنة الخامسة

---

(1) لمزيد من التفصيل يراجع بحثنا: المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية لبني هاشم في مكة - عرض وتحليل لبعض الإشكاليات.

(2) ابن إسحاق: المغازي، ص 135 – 139.

(3) المصدر نفسه، ص 137.

(4) عروة بن الزبير: مغازي رسول الله، ص 114.

(5) موسى بن عقبة ومساهماته في كتابة مغازي رسول الله (رسالة ماجستير غير مطبوعة مقدمة من نال خليل، جامعة الموصل 1987)، ص 98.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للبعثة[1]، قد جاءت بعد دخول الرسول ﷺ لشعب أبي طالب مباشرة.

4. يبدو أن مقاطعة قريش لبني هاشم وبني المطلب لم تبدأ بعد دخول رسول الله ﷺ لشعب أبي طالب مباشرة، وإنما استمرت العلاقات بين الطرفين على وضعها السابق إلى أن عاد عمرو بن العاص من الحبشة، وأخبر قريشًا بأن المسلمين قد وجدوا لهم موطنا آمنا في الحبشة. وإن مهمته قد فشلت في استعادتهم[2]. عند ذلك "كبر الأمر عليهم، وغضبوا على رسول الله ﷺ وأصحابه، واجمعوا على قتل رسول الله ﷺ، وكتبوا كتابًا على بني هاشم ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يخالطوهم،.... وصاروا بني هاشم في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من حين تنبيء رسول الله ﷺ "[3].

5. لقد تضمنت المقاطعة كما يتضح من النص المشار إليه آنفًا إتفاق جميع العشائر المكية على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب اجتماعيا واقتصاديا حتى يوافقوا على التخلي عن حمايتهم للرسول ﷺ. ولم يستثن من احكام هذه المقاطعة سوى أبي لهب، عبد العزى بن عبد المطلب لأنه ظاهر قريشًا على عشيرته وتضامن معهم[4]. وقد روى أن قريشًا قامت بتعليق صحيفة المقاطعة "في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم"[5]. وقد استمرت المقاطعة لمدة ثلاث سنوات حسب أغلب الروايات. أي أنها لم تنته إلا في حدود السنة العاشرة للبعثة[6].

6. لقد دخل جميع بني هاشم وبني المطلب شعب أبي طالب ما عدا أبا لهب، فكان "العباس رحمه الله في حصار الشعب معهم إلاّ أنه كان على دين قومه، وكذلك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابنه الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وكان شديدًا على رسول الله ﷺ وآله، يبغضه ويهجوه بالأشعار، إلاّ أنه كان لا يرضى بقتله ولا يقار قريشًا في دمه، محافظة على النسب - وكان سيد المحصورين في الشعب ورئيسهم وشيخهم أبو طالب بن عبد المطلب، وهو

(1) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 206.

(2) عروة بن الزبير: مغازي رسول الله، ص 114، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 208.

(3) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 208 – 309.

(4) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 351.

(5) المصدر نفسه، ق 1، ص 350.

(6) ابن إسحاق: السيرة، ص 141، ابن الزبير: مغازي رسول الله ص 114، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 210.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكافل والمحامي"[1]. وقد قدر عدد الرجال الذين كانوا في الشعب مع أبي طالب بأربعين رجلاً[2]. فإذا صح هذا التقدير فمن المحتمل أن يكون مجموع من كان في الشعب إذا أضفنا إليهم النساء والأطفال بحدود المائتي نسمة.

7. إنما تقدم يثير التساؤل عن ماهية الشعب وكيفية معيشة بني هاشم وبني المطلب فيه. إن الشعب في اللغة هو الوادي أو الطريق يخترق الجبال[3]. وقد نشأت مدينة مكة بين شعاب الجبال، لذا فقد أطلق على أحياء مكة تسمية الشعاب. فيقال شعب كنانة وشعب آل قنفذ، وشعب آل الاخنس وشعب بن يوسف، وبذلك فقد غدت كلمة شعب مرادفة في معناها لكلمة حي[4]. يقول الهمداني: "أن شعب وشعب حي"[5]. لذا فإن الدكتور جواد علي قد توصل" إلى أن مدينة مكة كانت مقسمة إلى شعاب، والشعاب هي وحدات اجتماعية مستقلة تحكمها الأسر"[6].

يتضح مما تقدم أن شعب أبي طالب كان يمثل أحد الاحياء المكية، ويوجد فيه دار أبي طالب وبقية دور بني عبد المطلب[7]، وإنه حينما اشتد تهديد المشركين للرسول ﷺ بالقتل طلب أبو طالب من الرسول ﷺ الانتقال من بيت زوجته خديجة والمجيء للعيش معهم في الشعب حيث منزل والده عبد الله، وهو المنزل الذي كان قد ولد فيه[8]. كما طلب من بقية أفراد بني هاشم والمطلب الذين كانوا يعيشون خارج الشعب أن ينتقلوا للسكن معهم في الشعب.

ويبدو من مجمل الروايات التي تحدثت عن شعب أبي طالب أنه كان يتألف من عدد من الدور التي يحيط بها سور مشترك. لذا فقد ترددت في الأخبار عبارات مثل عبارة "دخول الشعب" و"الخروج من الشعب" كثيراً. كما وردت عبارات أن المشركين كانوا يسمعون أصوات صبيان بني هاشم وبني المطلب يتضاغون من الجوع من وراء الشعب، حينما شدد المشركون عليهم الخناق في أثناء المقاطعة[9]، وإن مما يؤكد ما

(1) ابن أبي حديد: شرح نهج البلاغة، 1962، ج 14، ص 65.
(2) المصدر نفسه، ج 14، ص 310.
(3) الحموي: ياقوت: معجم البلدان، بيروت 1960، مجلد3، ص 347.
(4) الأزرقي: أخبار مكة، ج 2، ص 275، 286 – 287، 232 – 233.
(5) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص 129.
(6) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج 1، 91.
(7) الأزرقي: أخبار مكة، ج 1، ص 121، ج 2، ص 233 – 332.
(8) الحموي: معجم البلدان، ج 3، ص 342.
(9) ابن إسحاق: المغازي، ص 140.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقدم ما ذكره ياقوت من أن الشعب "كان لعبد المطلب، فقسم بين بنيه حين ضعف بصره، وكان النبي ﷺ أخذ حظ أبيه، وهو - أي الشعب - كان منزل بني هاشم ومساكنهم"[1].

وتجمع المصادر التاريخية على أن فترة المقاطعة كانت فترة شديدة على بني هاشم وبني المطلب، وذلك لأن قريشًا قد حاولت أن تقطع عنهم كافة منافذ النشاط التجاري، وإن تمنع عنهم سبيل المساعدة من أجل حملهم على التخلي عن حماية الرسول ﷺ. يقول عروة بن الزبير "فلبثوا في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم فيهن البلاء والجهد، وقطعوا عليهم الأسواق، فلا يتركون طعامًا يدنوا من مكة، ولا بيعا إلا بادروا إليه، ليقتلهم الجوع، يريدون أن يتناولوا بذلك سفك دم رسول الله ﷺ "[2]. ويذكر ابن إسحاق: "أن قريشًا قطعوا عنهم المادة من الأسواق، فلم يدعوا أحدًا من الناس يدخل عليهم طعامًا ولا شيئاً مما يرفق بهم، وكانوا يخرجون من الشعب إلى الموسم. وكانت قريش تبادرهم إلى الأسواق يشترونها ويغلونها عليهم. ونادى منادي الوليد بن المغيرة في قريش: أيما رجل وجدتموه عند طعام يشتريه فزيدوا عليه... ومن لم يكن عنده فليشتر وعلى النقد"[3].

يتضح مما تقدم، إن قسوة المقاطعة وشدتها قد أضرت ببني هاشم وبني المطلب، وجعلت ما لديهم من مؤونة ينفد، وأخذت آثار الحاجة والجوع تظهر عليهم فبلغ القوم الجهد الشديد، وحتى سمعوا أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب. لذا فقد حاول أبو طالب أن يجد بعض المنافذ لمقاومة آثار هذا الحصار الاقتصادي، فقد ذكر "أن علي بن أبي طالب ؓ كان يخرج ليلاً من الشعب، ويخفي نفسه، ويضائل شخصه، حتى يأتي إلى من يبعثه إليه أبو طالب من كبراء قريش، كمطعم بن عدي وغيره، فيحمل لبني هاشم على ظهره أعدال الدقيق والقمح، وهو على أشد خوف من أعدائهم كأبي جهل وغيره، لو ظفروا به لأراقوا دمه"[4].

وقد حاول بنو هاشم وبنو المطلب أن يستغلوا فرصة الحرية في الحركة والتعامل التي تتيحها لهم الأشهر الحرم، فعمدوا إلى الاتصال بأبناء القبائل العربية الذين يغدون إلى مكة في موسم الحج للمتاجرة معهم. وعلى الرغم من أن زعماء المشركين في

---

(1) الحموي: معجم البلدان، ج 3، ص 342.

(2) ابن الزبير: مغازي رسول الله، ص 114.

(3) ابن إسحاق: المغازي، ص 140.

(4) ابن أبي حديد: شرح نهج البلاغة، ج 13، ص 354.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مكة كانوا يراقبونهم ويحاولون الدخول معهم في مضاربات بهدف منعهم من عقد أية صفقة ناجحة، إلاّ أن ذلك لا يمكن أن يمنعهم بصورة تامة من المتاجرة والحصول على بعض احتياجاتهم من السوق[1].

إن الوضع الذي أصبح فيه بنو هاشم وبنو المطلب، لم يكن موضع رضى وارتياح من قبل مشركي مكة. بل إن هذا الوضع أصبح مصدر قلق وانقسام في صفوفهم، وذلك لأن منهم "من سره ذلك، ومنهم من ساءه"[2]، كما يقول ابن سعد. بل إن عامة قريش كرهوا ما أصاب بني هاشم من البلاء، كما يؤكد ذلك ابن إسحاق[3]. فلا عجب أن حاول بعض رجالات قريش ممن تربطهم صلات القربى والمصاهرة أو المودة ببعض بني هاشم والمطلب، تقديم العون والمساعدة لهم، على الرغم من معارضة زعماء المقاطعة.

وقد قدمت لنا المصادر بعض الأخبار عن محاولات بعض رجالات قريش تقديم المساعدة للمحصورين في الشعب. فقد ذكر ابن إسحاق أن هشام بن عمرو بن ربيعة، وكان ذا شرف في قومه وتربطه صلات قرابة ببني هاشم يأتي بالبعير ليلاً، وقد أوقره طعامًا "حتى إذا أقبله في الشعب، حل خطامه من رأسه، ثم ضرب جنبه، فدخل الشعب عليهم، ويأتي به، وقد أوقره برًا وبزًا، فيفعل به مثل ذلك"[4]. كما ذكر أن حكيم بن حزام خرج يوما، ومعه إنسان يحمل طعاماً إلى عمته خديجة بنت خويلد، وهي تحت رسول الله ﷺ ومعه في الشعب، إذ لقيه أبو جهل، فقال: نذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك عند قريش، فقال له أبو البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد، تمنعه أن يرسل إلى عمته بطعام كان لها عنده؟ فأبى أبو جهل أن يدعه. فقام إليه أبو البختري بساق البعير فشجه ووطأه وطئا شديدًا. وحمزة بن عبد المطلب قريباً يرى ذلك، وهم – أي المشركون – يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا بهم[5].

ويلاحظ أن المصادر التي بين أيدينا لم تقدم لنا أية معلومات عن قيام المسلمين الذي لم تشملهم المقاطعة بتقديم أية مساعدة للمسلمين المحاصرين في الشعب وعلى

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص 140.

(2) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 209.

(3) ابن إسحاق: المغازي، ص 140 – 141.

(4) المصدر نفسه، ص 145 – 146.

(5) المصدر نفسه، ص 142.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رأسهم الرسول ﷺ، على خلاف ما هو متوقع منهم. الأمر الذي يدل على أنهم كانوا في وضع صعب لا يسمح بأي تحرك في هذا الاتجاه. وإن ما يعزز هذا الافتراض أن معظم المسلمين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة خلال فترة المقاطعة، ولم يبق منهم في مكة إلا حوالي أربعين فردًا ما بين رجال ونساء[1]، كما أن المشركين كانوا بعد اتخاذ قرار المقاطعة قد "عدوا على من أسلم، فأوثقوهم وآذوهم، واشتد البلاء عليهم، وعظمت الفتنة فيهم، وزلزلوا زلزالا شديداً"[2].

وهكذا فقد كان الرسول ﷺ والمسلمون وكل من وقف إلى جانبهم يعيشون في محنة قاسية طوال فترة المقاطعة التي امتدت حوالي الثلاث سنوات، وعلى كافة المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فهل منع ذلك رسول الله ﷺ من مواصلة طريقه في الدعوة إلى الإسلام، ونشر مبادئه بين الناس.

اثنا عشر: الدعوة إلى الإسلام في فترة المقاطعة:

يقول الطبري في سياق حديثه عن المقاطعة أن رسول الله ﷺ، قد استمر على الرغم من كل ما واجهه في أثناء المقاطعة "يدعو قومه سرًا وجهرًا، آناء الليل وآناء النهار، والوحي عليه من الله متتابع بأمره ونهيه، ووعيد من ناصبه العداوة، والحجج على من خالفه"[3].

ويبدو أن زعماء المشركين قد قاموا بحملة تشهير واسعة ضد الرسول ﷺ مع بداية حملة المقاطعة، ومن قبلها أيضًا، من أجل كسب عامة الناس إلى صفهم في معركتهم التي تستهدف القضاء على الرسول ﷺ ودعوته. لذا فقد تصدى لهم القرآن الكريم ففضح مقاصدهم وكشف حقيقتهم كما أوضحنا ذلك آنفًا. يقول ابن هشام في وصف أبعاد هذه المواجهة: "فجعلت قريش حين منعه الله منها، وقام عمه وقومه من بني هاشم، وبني المطلب دونه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به، يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه، وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداثهم، وفيما نصب لعداوته منهم، ومنهم من سمي لنا، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار، فكان ممن سمي لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن عمه أبو لهب بن عبد المطلب وامرأته أم جميل بنت حرب ابن أمية"[4].

---

(1) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 343.

(2) ابن إسحاق: المغازي، ص 137.

(3) الطبري: تاريخ، ج 2، ص 336.

(4) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 354.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتشير المصادر إلى أن هذه الفترة قد شهدت مساجلات عقائدية مباشرة بين الرسول ﷺ وبين بعض زعماء المشركين، فقد ذكر أن الرسول ﷺ جلس يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد، "فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم في المجلس، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾" [1].

وقد حاول المشركون في هذه الفترة الدخول في مساومات مع الرسول ﷺ حول عقيدته. فقالوا له، وكان يطوف في الكعبة: "يا محمد، هلم، فلنعبد ما تعبد، ونعبد ما تعبد، فلنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذنا بحصتنا منه. وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد، كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾" [2].

ويبدو أن الرسول ﷺ كان شديد الحرص في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة على كسب بعض زعماء قريش إلى صفه. لذا فقد تطلع كثيرًا إلى إسلام الوليد بن المغيرة حينما وقف يكلمه: "وقد طمع في إسلامه، فبينما هو في ذلك، إذ مر به ابن أم مكتوم الأعمى، فكلم رسول الله ﷺ وجعل يستقرئه القرآن، فشق ذلك منه على الرسول ﷺ حتى أضجره وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد، وما طمع من إسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابسًا وتركه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾" [3].

ومن المحتمل أن زعماء المشركين قد حاولوا في هذه الفترة مساومة الرسول ﷺ على عقيدته من خلال تقديم بعض الامتيازات المادية والسياسية له، بعد أن شعروا أن وسائل الضغط الاجتماعي والاقتصادي لم تعد تجدي في حمل الرسول ﷺ على تعديل موقفه أو التخلي عن دعوته[4]. فقد ذكر ابن إسحاق أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا

---

(1) المصدر نفسه، ق 1، ص 358 – 359.

(2) المصدر نفسه، ق 1، ص 362، سورة الكافرون، الآية 1 – 6.

(3) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 364.

(4) وات: محمد في مكة، ص 196 – 198.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبا البختري، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل ونبيه ومنبه ابني الحجاج "اجتمعوا - أو اجتمع منهم - بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه تعذروا فيه. فبعثوا إليه، إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا وهو يظن أن قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم. فقالوا له: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك. وأنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك. ولقد شتمت الآباء، وعبت الدين وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة. فإن بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، سودناك علينا. وإن كنت تريد به ملكًا، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك به رئي تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي –، فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك. فقال لهم رسول الله ﷺ: "ما أدري ما تقولون؟ ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا. فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم. فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة. وإن تردوا علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"(1).

وحين أدرك زعماء قريش ألا أمل في زحزحة الرسول ﷺ عن عقيدته تحت تأثير إغراءاتهم المادية والسياسية راحوا يطلبون منه أن يأتيهم ببعض المعجزات الغريبة فرد عليهم بقوله: "ما بهذا بعثت"(2)، ثم انصرف إلى أهله وهو حزين آسفًا على قومه لعدم قبولهم دعوته ومن مباعدتهم إياه(3).

إن حوارات الرسول ﷺ ومساجلاته الآنفة الذكر مع المشركين وربما غيرها أيضا(4)، قد أفسحت المجال لوصول إشاعات وأخبار إلى المسلمين المهاجرين إلى

---

(1) ابن إسحاق: المغازي، ص178 – 179، ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 295 – 296.

(2) المصدر نفسه، ص 179.

(3) المصدر نفسه، ص 180.

(4) ابن إسحاق: المغازي، ص 157 – 158، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 205 – 206، الطبري:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحبشة من أن قريشًا قد أسلمت، وإنها سجدت حينما سجد الرسول ﷺ بعد قراءته لسورة النجم[1]، فعاد قسم من المهاجرين إلى مكة، وكان عددهم ثلاثة وثلاثين رجلاً "حتى إذا دنوا من مكة، بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفياً"[2].

ويبدو أن مواصلة الرسول ﷺ دعوة قومه إلى الإسلام خلال فترة المقاطعة وحواره معهم، وصلاته في المسجد الحرام قد تظهر متعارضة مع أحكام صحيفة المقاطعة، وبخاصة ما يتصل منها بعزم المشركين على قتل الرسول ﷺ. غير أن هذه الإشكالية تزول إذا وضعنا في اعتبارنا أن أهل مكة كانوا يلتزمون بمراعاة حرمة الأشهر الحرم. حيث يأمن الناس فيها على أرواحهم من الأذى والقتل. لذا فإن بالإمكان افتراض أن الرسول ﷺ كان يستغل هذه الفترة، للاتصال بالمشركين ومواصلة تبليغ الدعوة إلى الناس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سابعا: هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة.

مكث الرسول ﷺ في مكة بعد بيعة العقبة الثانية بقية ذي الحجة وشهري محرم وصفر، تمت خلالها هجرة جميع أصحابه إلى المدينة عدا من حبس أو افتتن [3]. ولم يبق مع الرسول ﷺ في مكة سوى علي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق بناء على طلبه.

ويبدو أن زعماء المشركين في مكة قد أدركوا خلال هذه الفترة مخاطر نجاح الهجرة على مصالحهم الاقتصادية والسياسية والدينية، فاجتمعوا في دار الندوة للتشاور فيما يجب عليهم عمله لمواجهة الموقف. قال ابن إسحاق، " ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا "وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرًا إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه"[4].

وقد أشير إلى أنه قد حضر اجتماع الندوة عدد من زعماء قريش الذين يمثلون عشائر نوفل وعبد شمس وعبد الدار وأسد ومخزوم وسهم وجمح، ويلاحظ أن هذه العشائر كانت قد اتخذت موقفًا مناوئا للعشائر المكية التي ساهمت في حلف الفضول والتي كان بضمنها عشيرة الرسول ﷺ، أي بنو هاشم [5]، فلا عجب أن تعمل على اتخاذ موقف شديد من رسول الله ﷺ.

لقد ذكر ابن إسحاق أن زعماء المشركين تداولوا في حبس الرسول ﷺ أو نفيه

---

(1) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 499.

(2) الأزرقي: أخبار مكة، ج 2، ص 245-246.

(3) ابن الزبير، مغازي رسول الله، ص 128.

(4) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 480.

(5) المصدر نفسه، ق 1، ص 481، وات، محمد في مكة، ص 236 – 237.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خارج مكة أو قتله. وقد أجمع رأيهم أخيرًا على قتل الرسول ﷺ استنادًا إلى خطة اقترحها أبو جهل بن هشام وهي حسب قوله: " نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جليدًا نسيباً وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه " [1]، وبذلك يتفرق دمه في العشائر جميعًا، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم فيرضون بأخذ الدية [2].

وقد ذكرت المصادر أن الرسول ﷺ قد عرف بهذه الخطة وأشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [3] لذا فقد سارع الرسول ﷺ إلى إعداد خطة الهجرة إلى المدينة بصورة تعتمد أعلى درجات السرية من أجل إحباط خطط المشركين ومكرهم [4].

وكانت خطة الرسول ﷺ في الهجرة تقوم على تكليف علي بن أبي طالب في المبيت في فراشه كي يوهم المشركين بأنه ما زال في داره ليلة الهجرة، ثم يقوم باصطحاب أبو بكر الصديق ﷺ في هجرته إلى المدينة.

وقد قام أبو بكر الصديق بشراء راحلتين للسفر واستأجر دليلاً اسمه عبد الله بن أرقط ليصحبهما في سفرهما. كما تولى أبو بكر مع الرسول ﷺ وضع خطة مغادرتهما مكة وتأمين وصول الطعام إليهما بطريقة لا تسمح لقريش باكتشاف موضع اختفائها. وقد ذكر ابن إسحاق "أن الرسول ﷺ وأبا بكر خرجا بصورة سرية إلى غار بثور، وهو جبل بأسفل مكة فدخلاه، وبقيا فيه ثلاثة أيام مختفين يعيشون على لبن أغنام كان يرعاها عامر بن فهيرة مولى أبو بكر الصديق بالإضافة إلى طعام كانت تأتيهم به أسماء بنت أبي بكر [5]. حتى إذا خف الطلب ويئست قريش من العثور عليهما خرجا من الغار واتجها صوب المدينة سالكين طريقا" غير الطريق الاعتيادي المألوف الذي كان يسلك الوديان والسهول الساحلية "وكان أبو بكر يعرف هذا الطريق وأهله من سفراته السابقة إلى بلاد الشام" [6].

---

(1) المصدر نفسه، ق 1، ص 482

(2) المصدر نفسه، ق 1، ص 482

(3) سورة الأنفال، الآية 30.

(4) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 480.

(5) المصدر نفسه، ق 1، ص 484- 492.

(6) العلي: الدولة في عهد الرسول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد استغرقت رحلة الرسول ﷺ إلى المدينة منذ أن غادر الغار في جبل ثور في 4 ربيع الأول، إلى أن وصلها في 11 ربيع الأول من عام 13 للبعثة المصادف 24 أيلول سنة 622م ثمانية أيام. وكان يصحبه في هذه الرحلة أبو بكر الصديق ودليلهما عبدالله بن أرقط وعامر بن فهيرة(1).

لقد كان أهل المدينة يترقبون وصول الرسول ﷺ كل يوم إلى مدينتهم بفارغ الصبر بعد أن سمعوا بخروجه من مكة، وقد ذكر أنهم كانوا يخرجون للقائه في كل يوم من بعد صلاة الصبح ويبقون في انتظاره حتى يشتد عليم الحر فيعودون إلى بيوتهم. وقد وافق وصول الرسول ﷺ قباء وهي ضاحية على حدود المدينة في وقت الظهر، وكان الأنصار قد عادوا إلى بيوتهم فشاهده أحد اليهود فراح ينبه أهل المدينة بقوله: يا بني قيلة هذا جائكم قد جاء (2). فخرج أهل المدينة لاستقباله فرحين. وقد قدم لنا أنس بن مالك وصفًا لاستقبال أهل المدينة للرسول ﷺ وحفاوتهم به بقولهم: "إني لأسعى في الغلمان يقولون جاء محمد، فأسعى ولا أرى شيئا، ثم يقولون جاء محمد فأسعى ولا أرى شيئا، قال حتى جاء رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر. فكنا في بعض خراب المدينة، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية يؤذن بها الأنصار فاستقبله زهاء خمسمائة من الأنصار حتى انتهوا إليها فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين. فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم فخرج أهل المدينة حتى إن العوائق - أي الحرائر الشريفات - فوق البيوت يتراءينه يقلن أيهم هو، أيهم هو؟ فما رأينا منظرًا شبيها به"(3).

إن الوصف المتقدم يدل على أن وصول الرسول ﷺ إلى المدينة كان بمثابة عيد للمسلمين حيث خرج لاستقباله حوالي خمسمائة رجل من الأنصار معبرين عن ترحيبهم وسرورهم بمقدمه. وقد شاركهم في التعبير عن هذه المشاعر النساء والأطفال.

ولم يعكر صفو هذا الاستقبال الحافل أي مظهر من مظاهر المعارضة أو الاستياء المعلن من غير المسلمين، سواء أكانوا من المشركين أم من اليهود مما يدل على قبولهم الضمني لهجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

وهكذا فقد تشكل موقف أهل المدينة من الرسول ﷺ استنادًا إلى المعطيات

---

(1) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 487-491-492، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 232-233، وات: محمد في مكة، ص 238.

(2) ابن هشام: السيرة، ق 1، ص 492

(3) ابن كثير: السيرة النبوية، ج 1، ص 381-382، السمهودي: وفاء الوفا، ج 1، ص 255.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاجتماعية والعقائدية على النحو آلاتي:

1. المسلمون من الأوس والخزرج، وكان ولاؤهم للرسول ﷺ كاملا بحكم إيمانهم بأنه رسول الله إليهم ومبايعتهم له على السمع والطاعة. وكان يشاركهم هذا الموقف بطبيعة الحال إخوانهم المهاجرون الذين وصلوا إلى المدينة قبل وصول الرسول ﷺ بفترة وجيزة.
2. المشركون من الأوس والخزرج، وكان موقفهم يقوم على التضامن مع قومهم المسلمين استنادًا إلى الأعراف والتقاليد العربية التي توجب على أبناء القبيلة التضامن واحترام حقوق بعضهم بعضًا في منح حق الجوار لمن يطلبه وإقامة التحالفات مع الأفراد والجماعات.
3. اليهود، كان يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وغيرهم من يهود المدينه حلفاء للأوس والخزرج. ومن ثم فقد كانوا ملزمين باحترام عهود حلفائهم والتضامن معهم في مواقفهم العامة. لذا فقد أظهر اليهود ترحيبهم بمقدم الرسول ﷺ إلى المدينة. وربما توقعوا أن تجلب هجرة الرسول ﷺ إلى مدينتهم الأمن والاستقرار الذي افتقدته بسبب الصراع الشديد بين مختلف الفئات المتنافسة.

لقد كان عمر الرسول ﷺ حين وصل المدينة حوالي ثلاث وخمسين سنة، أمضى ثلاث عشرة سنة منها بدعوة قومه إلى الإسلام، فلم يستجب له منهم إلا القليل، وقد هاجروا معه إلى المدينة، موطن الدعوة الجديد، فكيف ستكون السنوات القادمة بين هؤلاء المؤمنين الجدد، وما المصاعب والتحديات التي سيواجهها على طريق بناء مستقبل الدعوة في مرحلتنا الجديدة.

إن للباحث أن يتصور أن الرسول ﷺ قد دخل المدينة وهو يتمثل في ذهنه الآيات القرآنية التي أذن الله تعالى له بموجبها في الهجرة من مكة إلى المدينة [1]: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [2].

(1) ابن كثير: السيرة النبوية، ج 1، ص 360.

(2) سورة الإسراء، الآية 80.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner